ISSN: 2090 – 0449 Online
Type of License: CC BY-NC-ND
DOAJ API documentation: 359c88a5cecf4f7faa1c2f538c431346

الأساطير المتعلقة بالقدس في كتابات الرحالة والمؤرخين المسلمين منذ الفتح الإسلامي حتى العهد العثماني

د. عمرو عبد العزيز منير
أستاذ تاريخ العصور الوسطى المشارك
جامعة أم القرى
مكة المكرمة – المملكة العربية السعودية

مُلَخَّصٌ

تعالج هذه الدراسة فكرة محددة فحواها أن التاريخ والموروث الشعبي وجهان متوازيان يفهم أحدهما بواسطة الآخر مما يسر علينا أن نتخذ المنهج التاريخي والتحليلي في رصد الأساطير والحكايات الشعبية والخرافية في كتابات الرحالة والمؤرخين القدامى وما نفذ إلى النصوص المتعلقة بالقدس من دلالات ومضامين فكرية ذات محتوى أسطوري موروث من المرحلة الغيبية السابقة التي كانت تشكل أراء التاريخ وموضوعاته على الرغم من صياغتها صياغة تاريخية فنية على يد الرواة/ الرحالة والمؤرخين إلا أن أصولها لم تستغلق -في الأغلب الأعم- مستفيدًا من أشتات المعلومات الدينية والتاريخية الممزوجة بالحكايات الشعبية والخرافات والأساطير المتناثرة عن القدس في بطون الكتابات التاريخية والجغرافيَّة. في محاولة لكشف أواصره وتتبع خطاه وهو أيضًا خطوة لا تخلو من نقص ضروري، يدعوني إلى المزيد من الحرص على البحث، والتنقيب والتأمل والتسلح بطموح ورغبة في الفهم والتساؤل. والذي لا يمكن معه الظن بأن موضوع القدس في الأساطير والحكايات الشعبية التي افترشت كتابات المؤرخين والرحالة وأصحاب الكتابات الفضائلية قد استكمل حقه بحثًا ونقدًا وتحليلاً وذلك لضيق المقام بنا لو حاولنا تتبع الخطوات العامة لأنماط عناصر الموروث الشعبي المقدسي في كتب التراث العربي ومصادره، ومع كل فإن هذه الدراسة إنما هو محاولة لدراستها يرجى أن تتبعه محاولات أكثر شمولاً ومنهجية لكشف جوانب هذه النوعية من التاريخ، واقتحام منطقة بحثية معرفية تحتاج إلى الكثير من جهود الباحثين العرب لاكتشاف الكثير من جوانبها الخفية كشفًا عربيًا صرفًا لا نحتاج بعده إلا للتواصل مع الغرب في هذا المجال كأنداد لا متلقين تابعين.

بيانات الدراسة:

تاريخ استلام البحث:	١٣	أغسطس	٢٠١٥
تاريخ قبـول النشـر:	٢٤	نوفمبـر	٢٠١٥

كلمات مفتاحية:

تاريخ فلسطين، الوجدان الشعبي، الأساطير العربية، الشخصية المقدسية، بيت المقدس

الاستشهاد المرجعي بالدراسة:

عمرو عبد العزيز منير. "الأساطير المتعلقة بالقدس في كتابات الرحالة والمؤرخين المسلمين منذ الفتح الإسلامي حتى العهد العثماني".- دورية كان التاريخية.- العدد الواحد والثلاثون؛ مارس ٢٠١٦. ص١٧٢ – ٢١١.

مُقَدِّمَةٌ

كثير من الرحالة والأدباء، والفلاسفة الذين ارتحلوا شرقًا وغربًا، أرادوا أن يعبروا عن تجربتهم من زاوية "مشكلة تكوين صورة"، وكان ذلك أيضًا شأن المصور الفوتوغرافي الذي أراد التقاط صورة للأشياء على نحو ما هي عليه بالضبط "للآخر نفسه في واقعه الفعلي والحيوي" وكان هؤلاء الرحالة والكتاب والأدباء، يريدون الانغماس في اكتشاف الآخر وأن "يلمسوا بأصابعهم حضارات أخرى ومعارف جديدة وغريبة".. وكان من شأن هذا الانغماس، أن يسمح بوفرة من التفاصيل الأثنوغرافية في مؤلفاتهم وكتاباتهم، كنتائج تجربة مباشرة وقريبة مع الآخر، تطورت إلى رغبة في اتصال مباشر وفيزيقي مع الغريب والعجيب والمثير جدًا. وكان الكثير من هؤلاء الرحالة والأدباء حريصين على إلزام أنفسهم بما توحي إليه مشاعرهم وأحلامهم بالتنقيب عن "القديم والجديد" في أرض الأديان والرؤى والماضي العريق، حتى إذا ما رووا ظمأ نفوسهم وخلوا إلى أقلامهم وريشاتهم، جرت انطباعاتهم السحرية خببًا على أفراس الرواية والوصف والملاحظة والإبداعات الفنية والأدبية التي شكلت اللبنات الأساسية لصورة المشرق العربي بين دفات الكتابات التاريخية والأدبية والجغرافية في تناسق حيوي وتناغم آسرين.

وقد دعم الرحالة ذلك كله بانطباعاتهم الشخصية إن سلبًا أو إيجابًا حسب الرؤى الخاصة بهم فقد كانت عين الرحالة دائما بمثابة آلة تصوير تسجل ما يراه غريبًا جديرًا بالتصوير. على حين كان الناس في عاداتهم وممارساتهم اليومية لا يرون فيه غرابةً أو طرافةً أو شيئًا جديرًا بالتسجيل، لقد كانت ملاحظات الرحالة هي المادة الخام لكثير من علوم البشر[١] فكان كاتب الرحلة يصور الحياة كما كان يحياها والوجود كما كان يتصوره، وقلما نرى شيئًا مثل هذا في الأدب العربي النثري.[٢] يقول كراتشكوفسكي: "... يكون وصف الرحلة أحيانًا قصة ممتازة يسجل فيها صاحبها كل ما رآه أو ما هو جدير بالاهتمام، وكثيرًا ما تبلغ مستوى عاليًا من الفن والصياغة الأدبية".[٣] وهوما نلاحظه في أكثر الرحلات التي كان الشرق مسرحًا لها حيث ظل الشرق العربي قبلة للعديد من الرحالة فنزحوا إليه من كل فج عميق مزودين بقراءاتهم عنه في المصادر والمراجع الدينية والدنيوية وفي مقدمة بلاد الشرق كانت القدس. أرض الكنعانيين العريقة. الشامخة بقداسة تربتها وثراء ماضيها فهي الأرض التي اصطفاها الله وشرفها بأنبيائه ورسله، وجعلها بداية للنور ومنطلقًا للهداية وطريقًا للخير، ومجدها بمسرى رسوله (ﷺ) فهي أرض تحفظ مآثر لا تحصى.

فضلاً عن أنها اكتسبت في مخيلة الرحالة والمؤرخين والأدباء والفلاسفة والكُتَّاب أبعادًا ودلالات اقتربت من الأسطورة والخيال، وأخذ هذا التصور يتمتع في تلك المخيلة بصفة تكاد تكون "نمطية" تنطوي على الصدق حينًا، وعلى الكثير من التصورات والأوهام الغامضة في أحيان أخرى، ولعل هذه التصورات التي راحت تتضخم عبر العصور هي التي اجتذبت باقة من أعلام الشرق والغرب؛ أدباء ومؤرخين وفلاسفة ورحالة وشعراء وغيرهم، فأقبلوا بأقلامهم وريشاتهم مشوقين إلى روائع آيات الماضي في أرض الأنبياء، بما تحمله من دلالات دينية وجغرافية وتاريخية، تمثل نمطًا فريدًا مفعمًا بالمعتقدات، والعلوم، والفنون، والسياسة، والحكم، ومحورًا للعلاقات القائمة بين أفريقيا وآسيا، بين أوروبا والشرق بين ذاكرة الماضي والواقع الفعلي ومسرحًا لأهم الأحداث التاريخية العالمية.

وتراثنا العربي الذي وصلنا من عصور التألق الفكري في رحاب الحضارة العربية الإسلامية، قد ضم الكثير من الموروث الشعبي المتعلق بالقدس بين صفحات الكتب التاريخية والأدبية وكتب الرحلات، فضلاً عن الموسوعات ودوائر المعارف، المتخمة بالأساطير والمعتقدات والحكايات الشعبية، والأحاجي والألغاز والمحاورات الفكاهية والسِّير والملاحم البطولية والطرائف وما إلى ذلك، كلها فنون تنطوي على قيمة إنسانية ليس من الصواب الاستعلاء عليها.[٤]

خاصةً وقد دونها لنا أعلام الثقافة العربية ربما لأنهم كانوا من اتساع الأفق ورحابة الصدر بمكان، فلم يقيموا الحدود أو السدود بين ثقافة الخاصة وثقافة العامة، أوبين أدب الصفوة وأدب العامة، في مؤلفاتهم ومدوناتهم . التي تتطلب – في حقيقة الأمر – دراسة مستقلة ومستفيضة لا تقتصر على جمع النصوص وتحقيقها فحسب. وإنما عليها أن تستخلص أيضًا ما قد تنم عليه من دلالات، وأساسيات في التفكير العربي والإسلامي، وما تفصح عنه النظرة إلى علاقة الإنسان بالكون وأن نفتح ما نسميه بالنافذة الفولكلورية (العلمية/ المنهجية) على تراثنا المدون، الممتد طويلاً في المكان والزمان العربيين، فتتجدّد الرؤى المعرفية، وتتعدّد القراءات، فتتجذّر المناهج، وتتواصل الدراسات التاريخية والشعبية العربية، اكتشافًا وتأويلاً، دراسة وتأصيلاً، فتتجدّد الإفادة من هذا التراث بقدر ما يتنامى الوعي التاريخي والمعرفي والثقافي به ويضيق بنا المقام لو حاولنا تتبع الخطوات العامة لأنماط عناصر ذلك الموروث الشعبي في كتب التراث العربي.

١ـ القدس واختطاف جغرافيا الأنبياء

انفردت القدس من بين كل المدن، ومخيلة الأمكنة في العالم، في أنها صارت الملتقى الروحي لأبناء الديانات الإبراهيمية، وصعيدهم المقدس. وتتميز الرؤية الإسلامية للقدس عن رؤية الديانتين المسيحية واليهودية، في أنها تحتضن الجغرافية المقدسة لكِلا الديانتين هاتين، وتظهر التبجيل لكل ما يُذكّر بأنبيائهما، وما تركوا من آثار على أرضها الجليلة، حيث حمل الإسلام نظرة منفتحة على الآخر الديني، باعتباره جزءًا رئيسيًا من تاريخ الوحي الواحد، ورأى في الأديان التي سبقته، إحدى تجليات وحي إلهي واحد، يأتي هو ليشكل ذروة اكتماله، وخاتمة له، ويصبح الوحي الذي أُنزل على محمد، تبعًا لهذه النظرة، متمّمًا لرسالة من سبقه من الأنبياء،﴿قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَى وَعِيسَى وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾ (البقرة: ١٣٦).

من هنا أتى تعظيم المسلمين للأديان السماوية، ولكل الأنبياء: إبراهيم وداوود وسليمان، وموسى وعيسى، كما غدت آثارهم في القدس موضع تبجيلهم الدائم، فقد ذكر القرآن إبراهيم في (٢٧) سورة من سوره، إذ قدّم الإسلام نفسه على أنه اكتمال اليهودية، والمسيحية، وعودة إلى الأصل الإبراهيمي ﴿وَقَالُوا كُونُوا هُودًا أَوْ نَصَارَى تَهْتَدُوا قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ (البقرة: ١٣٥)، فكان اليهود والنصارى، تبعًا لذلك مسلمين إبراهيميين[٥]. وينتسب محمد (ﷺ) إلى العائلة النبوية الإبراهيمية، إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب وانتهاءً بعيسى بن مريم، ولعل هذا ما دفع لوران غاسبار إلى القول: "كيف نعجب إذا أصبحت القدس مدينة إبراهيم، وداود وسليمان وزكريا ومريم ويسوع عزيزة على المسلمين"[٦].

تمحورت جغرافية الإسلام الروحية حول البيت الحرام والمسجد النبوي، وبيت المقدس، في وحدة روحية شاملة، توحد بين المدن الثلاث: مكة، المدينة، القدس كعناصر تكوينية داخل قداستها، التي تشكل فيها مكة نقطة المحرق.[٧] فقد أجمع الرحالة والمؤرخون وأصحاب الكتابات الفضائلية على أن الكنعانيين هم أول من سكنها، حيث بدأوا في عمارتها منذ الألف الثالث قبل الميلاد، على التلال الغربية من عين سلوان، وفي الجنوب الشرقي من الحرم القدسي،

ويحيطها ثلاثة أودية، وادي سلوان، وادي النار، وادي الربابة، ويفصل الأخير ما بين جبل صهيون وتل أبي ثور، والثالث: الوادي أو الواد. وتوسعت المدينة، فيما بعد، حتى اتصلت بالمرتفع الذي بني عليه الحرم القدسي، وهو الذي يسميه الأوروبيون جبل موريا، واتصلت أيضًا بجبل أكر الذي تقع عليه كنيسة القيامة، وجبل زيتا القريب من جبل الساهرة، وجبل صهيون في الجنوب الغربي للقدس القديمة، وأطلت عدة جبال على مدينة القدس، في مقدمتها، جبل المكبر في جنوبها، الذي دخله عمر بن الخطاب رضي الله عنه عند فتحه القدس، وسمّي بجبل المكبر؛ لأن عمر كبّر فيه عند وصوله، وجبل الطور وجبل الزيتون، الذي صعد منه المسيح عليه السلام إلى السماء.[٨]

وأطلق الكنعانيون على المدينة اسم (أورشليم)، قبل أن يدخلها داوود بأكثر من ألف عام، بمعنى (مدينة السلام)، ويذكر الرحالة والمؤرخون أن ملكي صادق كان أول من اختطها، وهومن الملوك اليبوسيين المشهور بحبه للسلام، ولذلك لقب بملك السلام، وجاء اسم المدينة (مدينة السلام)، أي (أور . سالم)[٩]، وسالم هواسم إله السلام الكنعاني، بينما "أور" تعني (المدينة) باللغة السومرية، وهكذا ذكرها التوراة باسم "أورشليم"، واليونانيون (Hierorlyma) والأوربيون المعاصرون (Jerusalem).[١٠] وسمّاها داوود عند دخولها (مدينة داوود)، حيث تعايش اليهود مع اليبوسيين الكنعانيين، وبنى ابنه سليمان عليه السلام معبد الهيكل على موضع اشتراه من اليبوسيين، وأشرف على بنائه مهندسون فينيقيون من مدينة صور، برئاسة المهندس حيرام (سفر الملوك الأول . الإصحاح التاسع)[١١] وتمثل اليهود الثقافة الكنعانية حتى إنهم اعتمدوا، في البداية، الموسيقيين والمغنيين الكنعانيين، في الهيكل، ثم إن التوراة يذكر "صهيون" اسمًا للقدس، وهو اسم الحصن اليبوسي الذي استولى عليه داوود، وربما كان هذا الاسم مشتقًا من العربية "صهوة"، بمعنى أعلى الجبل، أو من العبرية بمعنى الأرض الجافة.[١٢]

يحدّد غاسبان مساحة هيكل سليمان عليه السلام بثلاثين مترًا، ستين ذراعًا طولاً، وعشرين ذراعًا عرضًا، ويقال إنه أقيم على قسم من الصعيد الذي بنى عليه المسجد الأقصى[١٣]، غير أنه سرعان ما انقسمت مملكة داوود الصغيرة إلى كيانين: يهودا حول القدس، والسامرة حول نابلس، ثم ما لبث أن قُضي على مملكة السامرة في سنة (٧٢٠ ق.م)، وفي القرن السادس قبل الميلاد على مملكة يهودا، ثم تتالى على حكم القدس البابليون والفرس واليونان والرومان، وخلال هذه الفترة الطويلة، تمّ عمارة الهيكل، وهدمه مرات عدة، وكان أولها التدمير البابلي له في ٥٨٧ ق.م، ثم أعيد بناؤه في العهد الروماني على يد هيرودت، الوالي الروماني على القدس، بطريقة أوسع وأضخم من الأصل، وإلى هذا الهيكل صعد المسيح، حيث حاربه الصديقون، والفريسون اليهود، وفي ربيع سنة (٧٠م) هدم تيطوس هيكل هيرودت هذا، ودمر أسوار مدينة القدس اليبوسية[١٤]، ثم أعاد تهديم ما تبقى منه ومن آثار مادريان الوثني (١١٧ - ١٣٨م) على أن يقيم على أنقاضه معبدًا لجوبيتر، وأصدر أمرًا بمنع دخول اليهود إلى المدينة، بعد أن سمّاها (إيليا) على اسمه.[١٥] ولقد استمر تنفيذ أمر هادريان بمنع اليهود من دخول القدس خمسة قرون، بعد أن أكد عليه الإمبراطور قسطنطين الذي أعلن المسيحية دينًا للإمبراطورية، إلى أن ألغاه العرب المسلمون بعد الفتح العمري، الذين أطلقوا على المدينة اسم (القدس) و(بيت المقدس) والقدس الشريف، فأعادوا إليها ما ظنوه التسمية القديمة التي أطلقتها عليها الملائكة في قديم الزمان.[١٦]

٢ـ القدس بغير بديل

دخلت بيت المقدس منذ أمد بعيد، في قلب التاريخ الروحي والزماني للوجدان الشعبي العربي . الإسلامي والمسيحي - بطريقة لا فكاك عنها- ولم يرض الوجدان الشعبي عن تسمية القدس بهذا الاسم بديلاً وهوما نتلمس صداه عند صاحب مثير الغرام إلى زيارة القدس والشام الذي خصص فصلاً في كتابه تحت عنوان (كراهية تسمية بيت المقدس بإيلياء) فيذكر عن سلسلة رواة وأسانيد احتفى بها الوجدان الشعبي: "قال: لا تدعوا المدينة بيثرب، ولا بيت المقدس بإيلياء باسم ملك من ملوك الروم سليمان بن شرحبيل" ويضيف: "حدثنا إسماعيل بن عياش عن بَحِير بن سعد عن خالد بن معدان، عن يزيد بن شريح قال: خرجت أنا وابن عم لي نريد الصلاة في بيت المقدس، فنزلنا على كعب الأحبار في دمشق فقال: أين تريد ؟ فقلت: أريد إيلياء، فقال: لا تقل إيلياء، ولكن قل: بيت الله المقدس صفوة الله من بلاده الأثر."[١٧] كما "أن أهل الشام وأطرافها يسمون بيت المقدس (القدس)".[١٨] مما يدلنا أن الوجدان الشعبي ببساطة وعمق آسرين أكد عروبة القدس واسمها وأن مدينته المقدس ليست ملكًا لشعب فلسطين وحده، وأن أي تنازل من أي أحد عن القدس ومسمياتها ليست له حجة شرعية على الوجدان الشعبي. ليتأكد لدينا أن القدس هي وعاء فلسطين وحاملتها وهي من أعطاها الغالب الأعم من صبغتها وأهميتها فالقدس ليست مدينة في وطن هو فلسطين، ولكن فلسطين وطن في مدينة هي القدس.

لقد فرض الوجدان الشعبي نفسه على أقلام الرحالة والمؤرخين العرب، فنظروا إلى فتح القدس كعملية تحقيق لوعد إلهي طال انتظاره، وكان من الواجب تحقيقه، وجوهر هذا الوعد وراثة المسلمين لمدينة بيت المقدس، وبما فيه من تراث روحي ومعانٍ مقدسة، وما تركه على أديمها الأنبياء من الأسرة الإبراهيمية، ابتداءً من إبراهيم، وانتهاء بالمسيح، وأمه مريم، فحافظوا على ذكر هؤلاء، وعلى بقايا العبادات التي تذكّر بهم، فتركوا لورثتهم، وإن كانوا قد انحرفوا نسبيًا، تركوا لهم حرية العبادة في كنف تلك الآثار التي يشاركونهم، في تبجيلها، بعد أن نظروا إليهم كشركاء حقيقيين، في تكريس قداسة المدينة، ومنذ ذلك الحين اندرجت القدس وإلى الأبد في التاريخ الشعبي والروحي والزماني للعرب والمسلمين بكل ما تحمله من التراث النبوي الإبراهيمي، بطريقة لا فكاك منها، ولم ينظروا إلى النصارى واليهود، من جراء فتحهم للقدس، كمنافسين، أو خصوم، بل كمتعاضدين في مباركة المكان المقدس، الذي يتسع للجميع،

ولاسيما لأهل الكتاب، ولم تعن أسلمة المدينة لهم إمحاء ذاكرة المدينة بكل ما يتصل بأنبياء بني إسرائيل، أو المسيح وأصحابه بل كانت تعني لهم تلك الأسلمة، طالما أن الإسلام نفسه متممًا لديانة الوحي، والجزء الخاتم منه، والجميع يصدر عن وحي واحد، كانت تعني إذكاء الذاكرة الشعبية بهؤلاء الرموز، لذا نجدهم حتى داخل الحرم الشريف، سمّوا الكثير من المواقع بأسماء داوود، وسليمان، ومريم، وعيسى، وتركوا لورثة المسيحية، واليهودية، حرية العبادة، في كنف مدينة تتسع على ضيقها بعبادة البشر جميعًا، فقد فهموا القداسة ليس على أنها مجسدة في الحجارة المحدودة المساحة، بل إن هذه القداسة لا تلامس هذه الحجارة إلا لتجاوزها باعتبارها ترمز إلى التعالي، وتذكّر به، وهي تتسع لعبادة ما لا نهاية من البشر، لذا فإن عمر بن الخطاب رضي الله عنه عندما ألح عليه صوفرينوس بمنع اليهود من دخول القدس، أجابه قائلاً: "إن ديننا لا يسمح بذلك".

لم يقتصر الوجدان الشعبي العربي الإسلامي على وضع القدس في قلب الجغرافية الروحية الإسلامية، كجزء لا ينفصل عنها، بل كرّس هذا الوعي تصورًا ضمّها فيه، مع بلاد الشام إلى الوحدة الأثنية/ الأقوامية، والسلالية، والجغرافية، والتاريخية للجزيرة العربية، من هنا أتى فتح العرب المسلمين القدس، في سياق فتحهم لبلاد الشام، كنتيجة طبيعية لتفكيرهم بالشام كوحدة إثنية جغرافية مميزة، وامتدادًا بشريًا للجزيرة العربية، لذا فإن الفاتحين توجهوا إلى المناطق التي تقيم فيها القبائل العربية، ولاسيما في جنوب سورية.[١٩] وكان الفلاحون الذين يسكنون المناطق القريبة من الساحل، والمناطق الجبلية، يتكلمون لهجات آرامية. كما يرتبط سكان تخوم البادية وجنوب فلسطين بصلات وثيقة بالقبائل العربية، وكذلك الفلاحون الذين يسكنون في بعض قرى تلك المنطقة، ويتكلمون العربية.[٢٠] ربما أدى وعيهم بذلك النسيج الاجتماعي لأهل الشام أثرًا مهمًا في عملية الفتح، وهوما يفسر رسالة أبي بكر إلى جنوده الذاهبين لفتح الشام "فبث خيلك في القرى والسواد، ولا تحاصر مدينة من مدنهم حتى يأتيك أمري، "فإذا كانت الروابط الروحية العميقة، ومعاني وحدة الجغرافية الإسلامية، قد حفّزت المسلمين على فتح القدس، فإن تصوراتهم التاريخية، والجغرافية، ومتخيلهم عن الروابط السلالية هومن أعطى لتلك الروابط الروحية بعدها الأرضي الزمني، ومنحها مصداقية تاريخية.

٣ـ أسطورة طوفان القدس

يقيس المؤرخ العربي التاريخ البشري بعلامات النبوة الكبرى، وبالرسالات السماوية المتعاقبة التي نزلت على الأمم تباعًا، ورتب تبعًا لذلك، ثلاث دورات نبوية كبرى في التاريخ، حدد فيها التاريخ السلالي، والنبوي للبشر، الدورة الأولى تبدأ بآدم وأبنائه، وتنتهي بالنبي نوح وبنيه، الذين يفتحون الدورة السلالية/ النبوية الكبرى الثانية للبشرية، في حين تبدأ الدورة النبوية الثالثة بإبراهيم وابنيه إسماعيل وإسحاق، التي يختتمها النبي محمد، ويختم معها دورة النبوة أجمعها، وينحدر العرب وفقًا للسردية التاريخية السلالية العربية من نسل سام بن نوح، ويعزّز المؤرخون هذه السردية بأقوال من النبي، كالحديث النبوي "سام أبو العرب، ويافث أبو الروم، وحام أبو الحبش[٢١]".

كان لحادثة الطوفان التي تصور الأقدمون وقوعها في عصور بعيدة دور هام في الفكر التاريخي، باعتبارها حادثة تاريخية عظيمة، تركت بصماتها على ذاكرة الشعوب وتناقلتها جيلا بعد جيل، فأصبحت بحق آية للعالمين (لاسيما مع وجود محاكي لها في بيئاتهم).[٢٢] وبقيت حيَّة في الأذهان وفي ثقافة الشعوب المختلفة باختلاف في التفاصيل يزداد شيئًا فشيئًا كلما ابتعد عن (المركز) موقع حدوث الطوفان، بل وحين قسَّم أوغسطين تاريخ العالم إلى عصور ستة في محاولة منه لتطويع الفكر التاريخي في إطار يخدم الفكرة المسيحية القائلة بعودة المسيح لخلاص البشرية، جعل من حادثة الطوفان محورًا هامًا في تقسيمه للتاريخ العالمي للبشرية.[٢٣] كما كان للطوفان بصمته على قراءة المؤرخين لتاريخ المدن والبلدان وفي مقدمتها القدس وبلدان المشرق العربي من خلال ذكر تاريخها وملوكها قبل وبعد الطوفان، وحين تاهت عقول مؤرخي العالم الوسيط في تفسير أسباب وجود آثار الأقدمين من وما خلفته حضارات الشرق الأدنى القديم لم يكن في وسعهم سوى أن يتخذوا من (طوفان نوح) تكئة يستندون إليها في شروحاتهم ويتركوا لنا هذا القدر الهائل من الغموض، والأساطير، والحكايات الشعبية.

وتتلخص الخطوط العريضة للأسطورة في نقاط تتكرر كلها مع بعض التنويعات في بقية الأساطير اللاحقة، قرار إلهي بدمار الأرض بواسطة طوفان شامل، اختيار واحد من البشر لإنقاذ مجموعة صغيرة من البشر، وعدد محدود من الحيوانات، انتهاء الطوفان واستمرار الحياة من جديد بواسطة من نجا من الإنسان والحيوان،[٢٤] وبهذا الشكل سنجد قصة الطوفان عند الكثير من اليهود والمسيحيين والمسلمين، فضلا عن عامة الناس قد اعتقدوا بعالمية الطوفان.

وإن لم يكن اليقين كله فإن أقرب الأشياء إلى اليقين، أن يد الخيال طالت حادثة الطوفان في مدونات التوراة أو ترجماتها وتفاسيرها بإضافة تفردت بها "مدونة التوراة" دون غيرها من المصادر، فاستغلت حادثة (طوفان نوح) والإضافة التي تفردت بها مدونات التوراة من قبل اليهود ليسوغوا لأنفسهم ارتكاب المحظورات، واستعباد الآخرين، واتهام الأنبياء بارتكاب المحظورات، واستعباد الآخرين، واتهام الأنبياء بارتكاب الفاحشة أو بادعاء أنها بإيعاز منهم؛ فاتهموا نوحًا بالسكر والتعري، ولعن كنعان ومباركة سام.[٢٥] ثم أرجعوا نسبهم إلى سام بن نوح وجعلوه حكرًا عليهم بغرض التأسيس للنظرية السامية والتمييز بين الشعوب والأمم على أساس سلالي عرقي عنصري بغيض.

واكتنف حادث الطوفان الغموض والخرافة في آراء من قالوا بعالميته من الرحالة والمؤرخين وغيرهم؛ رغم عدم تصريح النصوص بذلك. فلم يكن الطوفان عالميًا، ولم يكن الناجون هم نوحًا وأبناءه

وزوجاتهم فقط؛ لم تصرح الأساطير بذلك ولا التوراة ولا القرآن الكريم،[٢٦] إلا أنه يمكن القول: أن طوفان نوح حقيقة لا مراء فيها، أهلك قوم نوح، وكان طوفانًا عارمًا، وما جاء في الأساطير والتوراة مبالغ فيه ولا ينسجم مع معطيات الواقع، وقواعد المنطق. ورغم ذلك ظن أكثر الناس على اختلاف عقائدهم بأن الطوفان كان عالميًا، وتأسس على ذلك أكذوبة تسمى "السامية"،[٢٧] وتاه الناس في وهم ولا زالوا، كانت بدايته هوى ومطمعا فأصبح اليوم حقيقة وواقعًا، لأجل حفنة من اليهود شاءوا أن يقنعوا العالم بأنهم شعب الله المختار، فعبثوا بحقائق التاريخ والجغرافيا وعبثوا بسيرة الأنبياء الأطهار، ليثبتوا لأنفسهم حقًا غير مشروع ففعلوا، ولكنهم ما كانوا ليفلحوا لو كانت العقول متيقظة واعية، وما كان للخدعة أن تستمر ردحًا من الزمن لو تحرر المؤرخون من التفسير التوراتي الذي هيمن على تناولهم لتفاصيل الحادثة التي دخل منها المؤرخون إلى تاريخ الأمم والحضارات التي عاشت ونمت على أرض الشرق العربي.

يقول المقريزي: "الفرس وسائر الكلدانيون، أهل بابل والهند وأهل الصين، وأصناف الأمم المشرقية ينكرون الطوفان وأقر به بعض الفرس.. ولم يعم العمران كله ولا غرق إلا بعض الناس ولم يتجاوز عقبة حلوان ولا بلغ ممالك المشرق".[٢٨] ويضيف في "ضوء الساري": "وأهل الهند والصين لا يقرون بذلك، ويقول بعضهم أن الطوفان لم يحدث سوى في إقليم بابل، وما [وراه] من البلاد الغربية فقط. فإن ولد [كيومرت] الذي هو عندهم آدم كان بالشرق فلم يصلهم الطوفان ولذلك أهل الصين والهند لا يعرفون الطوفان".[٢٩] ويؤكد ابن خلدون في تاريخه: "واعلم أن الفرس والهند لا يعرفون الطوفان وبعض الفرس يقولون كان ببابل فقط".[٣٠] وأشار لذلك المسعودي بقوله : "وقد ذكر أن مواضع سلمت من الطوفان، يذكر ذلك الفرس وتزعم أنها لا تعرف الطوفان وكذلك الهند..".[٣١] وقال البيروني: "لم يعم العمران كلها ولم يغرق فيه إلا أمم قليلة وأنه لم يجاوز عقبة حلون ولم يبلغ ممالك المشرق".[٣٢]

وباتفاق في المعنى واختلاف في الألفاظ تجمع الروايات السابقة التي تناولت حادثة الطوفان على أنه كان محليًا، وقضى على الهمج والخطاة، ونجا نوح عليه السلام ومن معه من ذريته، وأهله وآخرون من غير الظالمين والكافرين.[٣٣] بينما شذت مدونات التوراة بإضافة جيء بها في نهاية الحادثة، فنسبوا إلى النبي نوح (عليه السلام) السكر والتعري ولعن كنعان ظلمًا ليحققوا أغراضًا خاصة ذات علاقة بخلافهم مع الكنعانيين، ثم استغلت تلك الإضافة لوضع بذرة التمييز العنصري والتأسيس للنظرية السامية وسطروا أساطيرهم بهتانًا وكذبًا منذ أول يوم زورت فيه التوراة. ورغم لا معقولية عالمية الطوفان، إلا أن الاعتقاد بعالميته ووصوله إلى القدس وما حولها من البلدان ساد في أوساط الناس؛ والذي أوهم السواد الأعظم منهم بهذا، هوما ذهب إليه مفسروا التوراة حيث لم تخل تلك الروايات بشكل أو بأخر من تأثير الإسرائيليات التي كانت تعكس التفسير التوراتي لأصول شعوب المنطقة والتي كانت بدورها نابعة من التراث الثقافي والأسطوري لهذه المنطقة ذاتها، وانعكس ذلك التأثير في روايات الرحالة والمؤرخين في سياق حديثهم عن تاريخ البلدان والمدن، بل اتخذوا من حادثة الطوفان بابًا يعرجون منه إلى فضائل القدس وعجائبها وتاريخها الموغل في القدم والمتخم بالنبوءات والإشارات الربانية المؤكدة على عروبة وقداسة المدينة العتيقة.

يقول صاحب الأنس الجليل: "وكان ركوب نوح في السفينة في مستهل شهر رجب وقيل لعشر ليال مضت من رجب وكان أيضًا لعشر ليال خلت من آب وخرج من السفينة يوم عاشوراء من المحرم وكان استقرار السفينة على الجودي وهو جبل من أرض الموصل وقد ورد حديث أن السفينة طافت بالبيت الحرام أسبوعًا ثم طافت ببيت المقدس أسبوعًا ولسنوات على الجودي وروي أن السفينة سارت حتى بلغت بيت المقدس فوقفت ونطقت بإذن الله تعالى وقالت يا نوح هذا موضع بيت المقدس الذي يسكنه الأنبياء من أولادك".[٣٤] ولعل موتيفة تكليم السفينة تدخل في خانة الخارق المعجز حيث تتجاوز القدرة الإنسانية الطبيعية المألوفة إلى المعجزة التي لم تكتب إلا لبعض الأنبياء، وتحولها بصيغ أخرى إلى الصلحاء، والأولياء والزهاد والمجاذيب، وهو استيهام عميق يرسم للعجائبي مسارًا يكشف عن تجذر الديني وأيضًا الغيبي في الوعي، وانعكاس ذلك في النصوص في شكل يقين وحقائق".[٣٥]

ما يهمنا في هذه الرواية، هو استمرار (الموروث الشعبي) في استثناء القدس وتميزها عن غيرها، كما تعكس إحساس الضمير الشعبي العربي والإسلامي بمكانه القدس وعروبتها ورسالة الخير والسلام التي ستحملها للبشرية من خلال تعاليم الرسالات السماوية التي تخرج من رحمها، وأنها هبة ربانية اختصها الله دون سائر البلاد بالرعاية والحماية والخير. فقد وصفها الوجدان الشعبي بأنها: "البيت المقدس الذي بنته الأنبياء وسكنته الأنبياء وما فيه موضع شبر إلا وصلى فيه نبي أو قام فيه ملك".[٣٦] كما نلاحظ في الروايات السابقة استخدام الأسلوب القصصي القائم على تطور الحدث وتفاصيله، والاعتماد على الحوار بين الشخصيات والمبالغة التي تثير العجب والدهشة حول (موتيفة) نطق السفينة كمعجز إلهية تهدف إلى غرس الإيحاء بمصداقية ما يروى وإلباسه ثوب الحقيقة على الرغم من اتجاهه الأسطوري الواضح كما يؤكد على حرص الرواة على إثارة ملكة التخيل لدى المتلقي واستمرارية عنصر التشويق لديه في السرد والوصف والحوار وتطور الأحداث.

٤ـ عروبة القدس

وينقل ابن عساكر نقلاً عن الشعبي، أنه بعد الطوفان، ونجاة نوح وأولاده، "قسم الأرض بين أولاده الثلاثة، فجعل لسام وسطًا من الأرض، ففيها بيت المقدس والنيل والفرات ودجلة، وما بين قيسون إلى شرق النيل، وجعل قسم حام غربي النيل، وقسم يافث وراء قسم سام إلى الشرق[٣٧]". وينحدر العرب، استنادًا إلى ذلك، من سام بن نوح، ويقسّم هذا النموذج السلالي العربي إلى ثلاثة فروع: العرب البائدة، والعرب العاربة، والعرب المستعربة. والعرب البائدة هم

القبائل التي بادت مثل الكنعانيين، وهم سكان القدس وفلسطين القدماء، وطسم وجديس، وعاد وثمود وأميم وعبيل وجرهم، والعرب العاربة، وهم اليمانية القحطانيين، وجدهم قحطان بن عابر المنتهي، نسبه إلى العرب البائدة، ثم إن العرب البائدة، والعرب العاربة القحطانيين، هم من سلالة أرم بن سام.[٣٨]

ويشير المسعودي إلى أن أولاد آرام أجداد العرب البائدة، والعرب العاربة، ويشير إلى أماكن سكناهم، ومن أولاد إرم "عام كانوا ينزلون الأحقاف من الرمل، فأرسل الله لهم هودا... وثمود بن عابر بن إرم.... ينزلون الحجر بين الشام والحجاز، فأرسل الله إليهم أخاهم صالحًا، طسم وجديس ابنا لاوذ بن إرم، كانوا ينزلون اليمامة والبحرين، وأخوهم عمليق (كنعان) بن لاوذ بن أرم، ونزل بعضهم الحرم، وبعضهم الشام، ومنهم العماليق (الكنعانيون) وتفرقوا في البلاد"[٣٩]. فنلاحظ أن المسعودي جعل العرب العاربة والبائدة تنتشر في كل أقاصي الجزيرة العربية، فضلاً عن بلاد الشام بما فيها فلسطين وعاصمتها القدس، حيث أن الفرع الكنعاني العربي هومن يقطن فلسطين وبلاد الشام.

أما الفرع الثالث، أي العرب المستعربة، فهم من ذرية إسماعيل الذي زوج ابنه من جرهم (العرب البائدة) وتعلم منهم اللغة العربية، وسمّوهم بـ "الإسماعيليين" أو "العدنانيين" نسبة على عدنان أحد أحفاد إسماعيل[٤٠]. ويختصر ابن كثير تقريره بالقول: "أما العرب المستعربة وهم عرب الحجاز فهم من ذرية إسماعيل بن إبراهيم عليهما السلام، وأما عرب اليمن وهم حمير فالمشهور أنهم من قحطان[٤١]"، ويحرص المؤرخ على تتبع مواقع سكنى أولاد عدنان في بلاد الشام والعراق، "فكلما كثرت أولاد معد بن عدنان، ومن معهم من قبائل العرب، ومزقتهم الحروب خرجوا يطلبون الريف فيما يليهم من اليمن ومشارف الشام، ونزحت منهم قبائل حتى نزلوا بالبحرين.... ثم تطلعت أنفس من كان بالبحرين إلى ريف العراق، .. فأجمعوا على المسير إلى العراق.... فوجدوا الأمانيين (الآراميين)، وهم الذين ملكوا أرض بابل وما يليها إلى ناحية الموصل."[٤٢]

ويكمل المسعودي الصورة الأسطورية، عن هجرات العرب العاربة "القحطانية" : "وتفرقت قبائل العرب لما كان بمأرب... فسارت غسان إلى الشام، وهومن ولد مازن... وغلبت غسان على من بالشام من عرب فملّكهم الروم على العرب... فكان أول ملوكهم الحارث بن عمر بن عامر بن حرثة بن امرئ القيس بن مازن... وكان آخر ملوكهم جبلة بن الأيهم، وقد كان منهم بالشام ملوك ببلاد مأرب (مآب) من أرض البلقاء من بلاد دمشق، كذلك مدائن قوم لوط من أرض الأردن وفلسطين... وكان لكنده وغيرها من العرب من قحطان ومعه ملوك كثيرة."[٤٣]

تشير خلاصة هذه المرويات الأسطورية أن شعوب منطقة الجزيرة العربية والشام ووادي الرافدين تشكل وحدة إقوامية وجغرافية واحدة، تصدر في تعدديتها القبلية عن أصل واحد يرتد إلى سام بن نوح، وتقع القدس في قلب هذه الوحدة الجغرافية البشرية، ويكاد يجمع الرحالة والمؤرخون العرب على أن العمالقة (الكنعانيين)، وهم من جملة العرب البائدة، هم السكان الأوائل الأصليين لبلاد الشام بما فيها القدس وفلسطين، فالكنعانيون وفق ابن الأثير هم "الجبابرة بالشام[٤٤]". ويذهب إلى أنه "كانت طسم والعماليق (الكنعانيون) وأميم وجاسم قومًا عربًا لسانهم عربي[٤٥]". ويؤكد ياقوت الحموي عروبة الكنعانيين سكان القدس وفلسطين، بقوله: "إن كنعان بن سام بن نوح إليه ينسب الكنعانيون، وكانوا يتكلمون بلغة تضارع العربية[٤٦]". ويذهب إلى أن الكنعانيين "هم أهل الشام"، ويقول: "وإنما سميت الشام شامًا لسكن سام بن نوح فيها، وقيل تسأمت به بنو كنعان، ... وكان كل ملك من بني كنعان يلقب جالوت إلى أن قتل داوود جالوت آخر ملوكهم، فتفرقت بنو كنعان[٤٧]". ويُجمع الرحالة والمؤرخون العرب على أن اليهود عندما دخلوا فلسطين، والقدس، كان أمامهم الكنعانيون، السكان الأصليون، فعلى سبيل المثال، يؤكد ابن كثير، "وأما الكنعانيون فلحق بعضهم بالشام، ثم جاء بنو إسرائيل...، ثم ثبت الروم على بني إسرائيل فأجلوهم عن الشام (القدس ونابلس) إلى العراق إلا قليل منهم، ثم جاءت العرب فغلبوا على الشام[٤٨]".

٥ـ القدس وإقليمها التاريخي والجغرافي

إلى جانب تأكيد الوجدان الشعبي العربي، كما تجلى في المدونات التاريخية والجغرافية والأدبية، على الوحدة الإثنية/ السلالية، فإنه شدد على الوحدة الجغرافية التي تضم القدس إلى بلاد الشام، وحدة بلاد الشام مع الجزيرة العربية، فغدت القدس، تبعًا لذلك، ومعها فلسطين، في قلب الشام، ولعل الاصطخري (ت.٣٢١هـ . ٩٣٠م) والمقدسي (ت.٣٨٠هـ/ ٩٩٢م) كانا من أوائل من صور الشام بوحدته الجغرافية الشاملة، في إطار وحدته مع بلاد الرافدين والجزيرة العربية، وأطلق المقدسي مصطلح "إقليم الشام" معبرًا عن وحدة أقاليمه المكونة من البلاد الحالية فلسطين وسورية ولبنان، فيقول :"إقليم الشام جليل الشأن ديار النبيين، ومركز الصالحين، ومعدن البدلاء، ومطلب الفضلاء، به القبلة الأولى وموضع الحشر، والمسرى، والأرض المقدسة، والرباطات الفاضلة والثغور الجليلة والجبال الشريفة ومهاجر إبراهيم وقبر وديار أيوب وبئره ومحراب داود وبابه وعجائب سليمان ومدنه وتربة إسحاق وأمه ومولد المسيح ومهده وقرية طالوت ونهره ومقتل جالوت وحصنه وجب أرميا وحبسه ومسجد أوريا وبيته وقبة محمد وبابه وصخرة موسى وربوة عيسى ومحراب زكريا ومعرك يحيى ومشاهد الأنبياء وقرى أيوب ومنازل يعقوب والمسجد الأقصى، وجبل زيتا ومدينة عكا ومشهد صديقا وقبر موسى ومضجع إبراهيم ومقبرته ومدينة عسقلان وعين سلوان وموضع لقمان ووادي كنعان ومدائن لوط وموضع الجنان ومسجد عمر ووقف عثمان ..وباب السكينة وقبة السلسلة ومنزل الكعبة مع مشاهد لا تحصى."[٤٩] ونلاحظ أن كتابات الرحالة والمؤرخين مثل: الطبري واليعقوبي، وابن الأثير، وابن كثير، قد أجمعت على تصوير الشام، وحدة جغرافية على وحدة الجزيرة العربية، وقد وضعوا

فلسطين التي تحتوي القدس، كأحد أقسامه، وسمّاه بعضهم الإقليم الأول، ويرجع ذلك ربما لموقع القدس الجليل في داخله، فهذا القاضي مجير الدين يلخص الأمر بقوله: "إن الأوائل قسمت الشام خمسة أقسام، الشام الأولى فلسطين، وأوسط بلدها الرملة، والشام الثانية حوران ومدينتها العظمى طبرية، والشام الثالثة الغوطة، ومدينتها العظمى دمشق، والشام الرابعة حمص، والشام الخامسة قنسرين، ومدينتها العظمى حلب[٥٠]".

وقد وضع ابن حوقل، حدودًا دقيقة للشام، عندما يشير "وأما الشام فإن غربها بحر الروم، وشرقيها البادية، من إيلة إلى الفرات، ثم من الفرات إلى حد الروم، وشمالها بلاد الروم (بيزنطة)، وجنوبها مصر، وتيه بني إسرائيل، وأخر حدودها فيما يلي مصر رفح[٥١]". أحيانًا، وانطلاقًا من اعتقادهم تارة بأن الكعبة مركز العالم، والقدس تارة أخرى، فإنهم وضعوا الشام على يمين الكعبة، كما هو الحال عند شهاب الدين المقدسي "إنما سميت شامًا لأنها عن شمال الكعبة، كما سمي اليمن كل ما كان عن يمين الكعبة من بلاد الغور[٥٢]".

٦ـ القدس وصورة الأرض

ويتسق ذلك مع إيمانهم بوحدة الجغرافية الروحية الإسلامية، التي تترابط في داخلها الكعبة في مكة، والمسجد النبوي في المدينة المنورة، مع المسجد الأقصى في القدس، ومن هنا أيضًا، تلتقي المفاهيم الميتا تاريخية، وتتجاوب مع المنطلقات التاريخية، تبعًا لتعقد العلاقة ما بين التاريخي البشري والروحي في القدس، فقبالة السردية التاريخية والجغرافية، والسلالية، هناك سردية ميتا تاريخي أو ما يمكن أن نسميه القراءة الشعبية للحدث، فلم يختلق الخيال الشعبي الأحاديث وأسانيدها فقط، وإنما تعدى بقريحته الشعبية وما امتلكه من ملكات ذهنية تصل به إلى حد الموهبة إلى بعض تفسيراتهم لآيات القرآن الكريم والتي يغلب عليها الجانب الأسطوري والمبالغة فيما يروي من أخبار أو روايات سواء المبالغة في إيراد الأعداد وتقديرها أو تفسير الظواهر الطبيعية تفسير أسطوري أو تذهب في تفسيرها لبعض الآيات القرآنية لتثبيت هذا الترابط بين أطراف الجغرافية الروحية الإسلامية، ففسروا الآية ﴿وَالتِّينِ وَالزَّيْتُونِ(١) وَطُورِ سِينِينَ(٢) وَهَذَا الْبَلَدِ الْأَمِينِ﴾ (التين: ١ ـ ٣)، بأن التين: هو مسجد دمشق، والزيتون: مسجد بيت المقدس، وطور سنين، حيث كلم الله موسى، وهذا البلد الأمين، هو مكة[٥٣]، ووفقًا للمرويات الشعبية التي نُسِبَت إلى الرسول ﷺ، تقول: "أُنزلت عليّ النبوة في ثلاثة أمكنة، بمكة والمدينة والشام" فإن تفسير الشام هنا وفق أحد الرواة: هو بيت المقدس[٥٤]، أي الشام الأولى في ترتيب المؤرخين والجغرافيين العرب.

ولعلنا نتلمس صدى هذا الاعتقاد في الصفحات الأولى عند ابن زولاق وفي سياق عرضه لفضائل بلده يوقف السرد ليورد سطورًا تكشف عن إحساسه بمكانة القدس ومصر والشام في العالم في إطار تصور ساذج لشكل الأرض تناقله المؤرخون والرحالة على غير روّية منهم. إلا أنه يدلنا على قصور المعلومات الجغرافية في ذلك الحين، كما نستشف منه أن الأساطير والحكايات الشعبية في ذلك الحين، قد غطت المناطق المجهولة التي لم تستطع الجهود العقلية آنذاك أن تكتشفها. فيقول: "خلقت الدنيا على صورة طائر برأسه وصدره وجناحيه وذنبه؛ فالرأس مكة والمدينة واليمن والصدر مصر والشام، والجناح اليمن العراق، وخلف العراق أمة يقال لها واق الواق، وخلف ذلك من الأمم ما لا يعلمه إلا الله، والجناح الأيسر السند، وخلف السند الهند، وخلف الهند، أمة يقال لها ناسك، وخلف ناسك أمة يقال لها منسك، وخلف ذلك من الأمم ما لا يعلمه إلا الله عز وجل، والذنب من ذات الحُمام إلى مغرب الشمس".[٥٥] ويقول ابن الجوزي في المنتظم:" قال كعب الأخبار: تجد في كتاب الله عز وجل معنى التورية أن الأرض على صفة النسر فالرأس الشام والجناحان المشرق والمغرب والذنب اليمن ولا يزال الناس بخير ما لم يقرع الرأس فإذا قرع الرأس هلك الناس".[٥٦]

غير أننا نجد الرحالة ابن حوقل (القرن الرابع الهجري) يسجل موقفه من خرافات التصور الجغرافي الذي راج في كتابات الرحالة والمؤرخين، وحاول تنزيه كتابه (صورة الأرض) عن ذكر مالا يعقل، بل ويحسب له أنه ناقش تلك المعتقدات الجغرافية المستقرة في عصره مناقشة علمية، وانتهى إلى نقدها رافضًا فكرة تصوير الأرض على شكل طائر بقوله : "فقد اتفق العلماء بمسالك الأرض وبعض الحسّاب المشار إليهم بعلم الهيئة، فيما تواضعوه من صفات الأرض أنها مصورة بصورة طائر؛ فالبصرة ومصر الجناحان والشام الرأس والجزيرة الجؤجؤ، واليمن الذنب، وهذه الحكاية ما رأيتها قط مقررة، وإذا كان الأمر كذلك ففارس وسجستان وكرمان وطبرستان وأذربيجان وخراسان ليس من الأرض، ولا معدودة في حسابها .. وهذا قول يحتاج إلى تقرير بفهم جامع وفكر صحيح ليقف على حق ذلك من باطله.."،[٥٧] غير أن السيوطي قد أشار إلى أن "هذا التشبيه رفعة في القدر وفخرها على البلاد كفخر العلماء على العباد".[٥٨]

بيد أن ما يهمنا أن تصور موقع مصر والشام بما فيها القدس في صدر ذلك الطائر أو جناحية دلالة على إحساس أهلها ومن عاصرهم بأهمية تلك البلاد ومحوريتها ودورها الفاعل في الواقع والوقائع. فإذا كان الاصطفاء والتكريم مألوفًا في الناس وفي الأوقات والأزمنة، فإنه وارد أيضًا في الأمكنة والبلاد والأقطار وهذا ما التفت إليه أعلام الرحالة والكثير من المؤرخين الذين كتبوا عن "فضائل البلدان" فقد تتبعوا احتفاء القرآن بالقدس عندما ورد ذكرها فيه بصريح اللفظ أو بما دلت عليه القرائن والتفاسير، فيذكر ابن الجوزي في تاريخ بيت المقدس: "عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله تعالى: (وَإِذْ قُلْنَا ادْخُلُوا هَذِهِ الْقَرْيَةَ) هي بيت المقدس (فَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَدًا) الأقصى وقوله :حِطَّةٌ يعني لا إله إلا الله بحط الذنوب". وعن أبي عبلة في قوله تعالى: "فَإِذا هُم بِالسَاهِرَة" قال هو: البقيع الذي إلى جانب طور زيتا..[٥٩]

٧ـ قدر القدس في الأساطير العربية

كما احتفى الموروث الشعبي بالمأثورات النبوية التي جمعها الرحالة والمؤرخون وكتّاب الفضائل عن القدس والشام، فجاءت في

سيل من النبؤات النبوية تبشر بفتح الإسلام للقدس والشام، وبدورها في دولة الإسلام. والتي ربما أثرت الروابط المبكرة للعرب في ما بين الجزيرة العربية وبلاد الشام الخاضعة للروم، فضلاً عن الروابط الروحية بالقدس، في إفراز إيماءات عميقة عن روابط المسلمين بمصير الشام ومصر عمومًا، ومصير القدس خصوصًا، فيروى الموروث الشعبي عن معاوية بن قره عن أبيه "أن الرسول (ﷺ) قال: إذا هلك الشام، فلا خير في أمتي[٦٠]". كما تذهب مرويات أخرى تعد من ذخائر الموروث الشعبي التي كانت تلبي حاجة ثقافية / اجتماعية في المجتمع العربي آنذاك، في طريق التبشير النبوي بفتح القدس والشام، كالحديث المروي عن معاذ، أن رسول الله قال: "يا معاذ إن الله عز وجل سيفتح عليكم الشام من بعدي، من العريش إلى الفرات، رجالكم ونساؤكم وإماؤكم مرابطون إلى يوم القيامة، فمن اختار منكم ساحلاً من سواحل الشام، أو بيت المقدس، فهو جهاد إلى يوم القيامة[٦١]". كما نتلمس إشارات من جانب الوجدان الشعبي العربي في الكتابات التاريخية، ومؤلفات الفتوح والمغازي، إلى جانب المرويات الشعبية التي تتخذ من الأحاديث النبوية تكئة أمام ملأ المسلمين لتعضيد موقفها الوجداني في تبشيرها بفتح القدس والشام، فتلمح إلى أن النبي اتجه فعليًا في نهاية حياته نحو فتح الشام، وهوما يظهر من خلال المبادرات التي اتخذها إزاء القبائل العربية النازلة فيها، ومهد النبي لنشر الإسلام عن طريق التراسل مع زعماء القبائل العربية الشامية الحدودية، وقد توصل إلى كسب صاحب إيله (العقبة)، وإلى عقد صلح مع أهل جرباء وإذرع، وهوما فتح أبواب الشام، وبعث روح المقاومة في نفوس العرب[٦٢]، ولقد اعتبرت بعض المصادر غزوة "دومة الجندل" التي جرت في العهد النبوي أول غزوات الشام، وكانت غزوة "مؤتة" بداية الصراع بين المسلمين وبيزنطة لتفح بلاد الشام، وجهز (ﷺ) حملة بقيادة أسامة بن زيد لإنفاذه إلى الشمال نحو الشام، وتوفي النبي قبل مسيرة حملة أسامة، فما كان من أبي بكر إلاّ أن أنفذها.[٦٣]

ويأتي كتاب أبي الحسن علي بن حمد الربعي المالكي (ت. ٤٤٤هـ) شاهدًا على تلك النزعة الشعبية التي تحتفي بالمأثورات النبوية إذ تضمن قسمًا خصصه الربعي، لفضائل القدس، في سياق حديثه عن الفضائل، بوصف القدس هنا مركزًا للقداسة الشامية، وقد قرأ الربعي كتابه هذا في مسجد دمشق سنة ٤٣٥هـ[٦٤].. وتألف كتاب الربيعي من ثمانية عشر بابًا، أوّله مخصص لفضائل الشام، والباقي في فضائل دمشق، ومن الملاحظ أن الكثير من الأحاديث التي يوردها عن دمشق والشام، فسرها المفسرون على أنها تشير إلى القدس، مثل الحديث الذي يورده عن أبي ذر "الشام أرض المحشر والمنشر"، أو الحديث المروي عن زيد بن ثابت أنه سمع النبي يقول: "يا طوبى للشام، يا طوبى للشام، يا طوبى للشام. قال يا رسول الله وبم ذلك؟ قال: تلك ملائكة الله باسطة أجنحتها على الشام[٦٥]". ويروي في باب "ذكر ما ورد في دمشق"، بأن قتادة فسّر آية " وَالتِّينِ وَالزَّيْتُونِ " "بأن التين جبل دمشق، والزيتون جبل يقع عليه بيت المقدس[٦٦]"، وفي حديث آخر، نسب إلى داوود بن أبي هريرة، "قال رسول الله (ص): أربع مدائن من مدائن الجنة في الدنيا: مكة والمدينة وبيت المقدس ودمشق[٦٧]". فيجمع الشام بالمدن المقدسة الثلاث التي تشكل الجغرافية الروحية للمسلمين، كما يذكر عن سفيان الثوري الحديث "الصلاة في مكة بمائة ألف صلاة، وفي مسجد رسول الله بخمسين ألف صلاة، وفي بيت المقدس بأربعين ألف صلاة، وفي مسجد دمشق بثلاثين ألف صلاة[٦٨]". ولعل مباركة الشام ودمشق هنا هي امتداد لمباركة مدينة القدس، وذلك تفسيرًا للآية ﴿ وَنَجَّيْنَاهُ وَلُوطًا إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا لِلْعَالَمِينَ ﴾ (الأنبياء: ٧١).

تلك المرويات التي اتخذت مسحة إسلامية تعكس بالضرورة أصداء اعتقاد الوجدان الشعبي العربي المسلم بأن فتح الشام والقدس كان قدرًا مكتوبًا اختصهم به الله كما تكشف لنا عن جانب من الأفكار العامية السَّيارة والشائعة عن بيت المقدس يومئذ، في إطار من المعتقدات والعادات والتقاليد التي سادت الخريطة الثقافية للمشرق العربي في ذلك الوقت. كما أن تلك المرويات كانت ترضي حاجة اجتماعية/ ثقافية لشرائح بعينها في المجتمع العربي والإسلامي، خاصة في سياق فترة الفتوحات الإسلامية، وما أيقظه من شعور في الأمم المختلفة التي غلبت على أمرها مما جعل لها تكئة لانتحال الحديث وإرجاعه للرسول (ﷺ) وإيجاد ما يعزز صلتهم بالإسلام، وتقيم لنفسها أمام ملأ المسلمين حجة ناهضة، تدل على فضل ومكانة أمصارهم ومدنهم على بقية المدن والأمصار الأخرى. ومن هنا تبادلت الرواية التاريخية والرواية الميتا تاريخية التأثير والتكامل في تفسير الصلات العميقة التي تربط إقواميًا وجغرافيًا، وروحيًا، ما بين القدس ومكة والمدينة المنورة، والترابط بين الشام والجزيرة العربية تاريخيًا وإقواميًا وجغرافيًا.

٨. المادة الفولكلورية التي تدور حول "فضائل القدس"

شهد القرن (الثالث الهجري/ التاسع الميلادي) بروز مراكز ثقافية عديدة متنافسة على امتداد العالم الإسلامي، كما ازدهر النشاط العلمي والفكري في مصر وبلاد الشام والقدس والمغرب والأندلس، فضلاً عند بلدان المشرق الإسلامي، وكان علم التاريخ واحدًا من ميادين المنافسة؛ وتمثلت النتيجة النهائية في ظهور التواريخ المحلية؛ التي تتحدث عن تواريخ البلدان ثم ظهرت تواريخ المدن التي ذاعت وانتشرت على مدى عصور الثقافة العربية والإسلامية، فقد وجدت حاجة ثقافية/ اجتماعية جديدة وهي منافسة المراكز الثقافية في شتى أنحاء دار الإسلام، وكان المسلمون قد صاروا منذ القرن الثالث الهجري أغلبية في البلاد المفتوحة وأخذت كل جماعة تحاول إبراز فضائل البلد الذي تنتمي إليه.[٦٩]

وهنا نجد أن الكلام عن فضائل البلدان كان نوعًا من التأليف جمع بين التاريخ والأساطير والموروث الشعبي، فضلا عن الأدب والدين، والذي كان إفرازًا للتفاعل القائم بين ما جاء به الإسلام واللغة العربية، والموروثات الثقافية المحلية. في كل مصر من أمصار دار

الخلافة والذي كان قد نضج بالقدر الذي جعل لكل بلد شخصيتها الثقافية المتمايزة داخل الإطار العام للثقافة العربية الإسلامية كلها.[٧٠] وجرت العادة بين أغلب أصحاب ذلك النوع من التدوين التاريخي في العصور المختلفة، أن يبدأ بعدة فصول تدور كلها حول فضائل المصر أو المدينة؛ كم مرة ذكرت في القرآن الكريم؟، وفي الأحاديث النبوية؟، مَنْ نزلها من الصحابة، والتابعين ؟، ثم ينتقل المؤرخ إلى سرد تاريخها منذ بدء الخليقة. وهنا تلعب الأساطير دورًا بارزًا وتفعل فعلها في الواقع والوقائع. وعلى الرغم من أن كثيرًا من الرحالة ومؤرخي البلدان والفضائل قد دخلوا إلى صميم (فضائل القدس) من بوابات القرآن والأحاديث، فإن باب الأسطورة ظل مفتوحًا لم يغلقه أحد إلا القليل.

وتشير المصادر التاريخية أن الكتابات المتعلقة بشأن "فضائل" القدس، لعل أول كتبها، قد ظهرت في القرن الثاني الهجري، الثامن الميلادي، إلاّ أنها فُقدت، فيشير إليها حاجي خليفة بقوله: "إن أبا حذيفة إسحاق بن بشر القرشي البخاري (ت. ٢٠٦هـ) ألف كتابًا بعنوان "فتوح بيت المقدس" في القرن الثاني الهجري، الذي يوحي بأن صاحبه كان ملمًا بأخبار فتح القدس، وما أحاطها من روايات، ومن اشترك فيه من الصحابة[٧١]". وأعقبه موسى بن سهل الرملي (ت. ٢٦١هـ) في القرن الثالث الهجري، ألف كتابًا في فضائل القدس، كما يذكر أنه في القرن الرابع الهجري، ظهر كتاب لأحمد بن خلف السبحي بعنوان يجمع بين المدن المقدسة الثلاث: "وصف مكة شرّفها الله وعظمها، ووصف المدينة الطيبة، ووصف بيت المقدس المبارك وما حوله" ويقصد هنا ما "حوله" أرض الشام، التي أصابتها المباركة المركزة على بيت المقدس، وأيضًا هناك كتاب "من نزل فلسطين من الصحابة"، الذي عثر على مخطوطته مؤخرًا، أما الكتب الأخرى فلم يعثر عليها إلى الآن[٧٢]. واتسمت تلك المدونات "الفضائلية"، باهتمامها بإبراز مميزات المدينة: تاريخها، جغرافيتها، زراعتها، حيواناتها، وأهم من ذلك، حال سكانها: لغاتهم، وعاداتهم، أديانهم، وتكاد تقترب بعض الدراسات للبلدان من الدراسة الانثروغرافية، أو الانتروبولوجية.[٧٣]

٩ـ الموروث الشعبي المتعلق بالشخصية المقدسية

وترك لنا الرحالة والأدباء والفلاسفة صورًا حية وصادقة عن مدينة بيت المقدس: الإنسان والحضارة والأرض، فجاءت كتاباتهم بمثابة وصف تصويري للقدس نابعا من واقع المشاهدة والتجربة الذاتية مما جعل من سطور كتاباتهم "أتم صورة ترسم حتى الآن لحياة المدينة المقدسة في العصور الإسلامية" ليس باستخدام اللغة التصويرية المجازية فقط وإنما بفضل الوصف البسيط الواضح الذي استخدمه العديد من الرحالة والأدباء الذين جعلوا الأشياء تتمثل حية أمامنا، فيصف المقدسي في كتابه أحسن التقاسيم أهل بيت المقدس في عبارة شعبية بليغة شاعت في عصره فيقول:" وكقولنا: "ولا أعز من أهل بيت المقدس"؛ لأنك لا ترى بها بخسًا ولا تطفيفًا ولا شربًا ظاهرًا ولا سكران ولا بها دور فسق سرًا ولا إعلانًا مع تعبد وإخلاص. ولقد بلغهم أن الأمير يشرب فتسوروا عليه داره وفرقوا أهل مجلسه".[٧٤] ويصف ما تميزت به القدس فيقول:" وبمكة فصاحة، وبمرو دهاة، وصنعاء طيبة الهواء، وبيت المقدس حسنة البناء".[٧٥]

ومن تلك الصور البديعة التي نجدها في كتابات الرحالة والمؤرخين في سياق حديثهم عن عادات وتقاليد أهل بيت المقدس، والتي ظلت إلى وقت قريب لديهم، والتي اشتركت فيها جميع الطوائف من مسلمين ومسيحيين ويهود، عادة إخفاء بعض النقود تحت الأرض، فالاكتشافات الحديثة قد أظهرت أن هذه العادة قديمة، كما تم الكشف عن كثير من العملات وبكميات كثيرة، وبخاصة القيمة الصغيرة، والتي وجدت حول بيت المقدس وغيرها من المدن، فقد جرت العادة بأن يخفي الناس هذه النقود داخل أوانٍ فخارية، خشية سطو اللصوص من الحكام عليها، وربما نظروا لكثرة تعرضهم للإغارات والمصادرات التي تكرر بكثرة في عصر سلاطين المماليك الجراكسة (٧٨٤هـ - ٩٢٢هـ/١٣٨٢م – ١٥١٧م) . ومن المرجح أن هذه العادة كانت منتشرة بشكل واضح بين سكان القرى حول بيت المقدس، وربما رجع ذلك إلى فقرهم وتعبهم في الحصول على تلك النقود، مما جعلهم يعتزون بها ويتفننون في إخفائها[٧٦] تحسبًا لنوائب الدهر.

هذه النظرة المستقبلية الواعية ضد عاديات الزمن تجذرت في الوعي الشعبي لأهل بيت المقدس فغذتها قريحتهم بالعديد من الأمثلة الشعبية المليئة بعصير التجربة الحياتية فيقولون :"قرش الصبا وابن الصبا بتعوضوش" فالقرش الذي يدخره الفرد في شبابه تمامًا كالابن الذي يأتيه وهو في صباه لا يمكن تعويضهما وفقًا للناموس والتجربة الشعبية وذلك لقيمتهما الجزيلة في شيخوخته [٧٧]. وكذلك إيمانهم بأن: "القرش الأبيض بينفع في اليوم الأسود" ولتأكيد مستقبل مشرق لهم ولأولادهم تراهم يجدون في البناء كما يهتمون بفلاحة الأرض ويعتبرون في ذلك سعادة يفتخرون بها بين الناس كما يعتز الآخرون بمثل هذه الفئة بقولهم :"يا بخت مَنْ بنى وعلى وراح وخلى".[٧٨]

ويمكن القول؛ أن تلك الأمثال الشعبية قد تولدت من المكابدات واحتكاك المشاعر بالمواقف واصطدام المواقف بالموروث العقائدي، فاكتسبت الأمثال قوة القانون وشرعية الشريعة وتحولت إلى عملة متداولة تكون في كثير من الأحيان أقوى من العملة النقدية[٧٩] التي اعتاد أهل بيت المقدس أن يخفوها عن الأعين والتي تتشابه مع عاداتهم في الحرص على إنشاء الآبار بنوعيها [آبار جمع المياه وآبار خزن الغلال] فلا يخلو بيت مقدسي أو مدينة أو قرية فلسطينية منها حتى مدة ليست بالقصيرة. كما خلفوا وراءهم السدود والقنوات في مدن الجنوب الفلسطيني والتي تؤكد حرصهم على الاحتفاظ بكل قطرة من الماء وكان على رأسهم العرب الأنباط الذين عرفوا كيف يستنبطون الماء من قاع الأرض وحفروا "المطمورة" بالإضافة للبئر لخزن الغلال وبنوا في المنزل "الباكية" للغرض نفسه وقالوا :"خزين الصيف بينفع في الشتا". وأشار صاحب الأنس الجليل إلى وجود برك بالمدينة أنشأت لهذا الغرض بقوله: "وكان في بيت المقدس ست برك عملها حزقيل أحد ملوك بني اسرائيل منها ثلاثة في المدينة بركة بني

اسرائيل وبركة سليمان وبركة عياض وثلاثة خارج المدينة بركة ماملا وبركتا المرجيع جعل ذلك خزائن للماء لأهل بيت المقدس".[٨٠]

وعنها يقول الرحالة القزويني: "وفيها عمارات كثيرة حسنة وشرب أهلها من ماء المطر. ليس فيها دار إلا وفيها صهريج."[٨١] ويضيف المقدسي عن طرق شرب أهل بيت المقدس: "والماء بها واسع ويقال ليس ببيت المقدس أمكن من الماء والأذان، قل دار ليس بها صهريج وأكثر، وبها ثلاث برك عظيمة بركة بني إسرائيل بركة سليمان بركة عياض عليها حماماتهم، لها دواعٍ من الازقة وفي المسجد عشرون جبًا متبحرة، وقل حارة إلا وفيها حب مسبل غير أن مياهها من الأزقة، وقد عمد إلى وادٍ فجعل بركتان يجتمع إليهما السيول في الشتاء وشق منهما قناة إلى البلد تدخل وقت الربيع فتملأ صهاريج الجامع وغيرها."[٨٢] ويعلق الرحالة اليهودي بنيامين التطيلي (القرن السادس الهجري) على طريق شرب أهل بيت المقدس بقوله: "وغالب أهل القدس يشربون ماء المطر يجمعونه في صهاريج معدة لهذا الغرض في البيوت".[٨٣] وقد أشار الرحالة المدجن في القرن الثامن الهجري إلى أن: "الحرم القدسي كان يجيئه الماء من جبال الخليل ولكن ضعفت الملوك وخربت الساقية بعد أن كان الماء يجري في جميع الحرم المقدس واليوم فيه أجباب كثيرة من ماء الثلج والمطر ما يكفي مدينة بيت المقدس خمسة أعوام".[٨٤]

تلك الممارسات والعادات الشعبية تساعدنا في كشف عن التطور التاريخي والاجتماعي لشخصية أهل بيت المقدس خاصة والشخصية الفلسطينية عمومًا التي عمدت إلى إخفاء ما تراه ذا قيمة لديها بعيدًا عن أعين الناس والولاة والحكام لتتجلى لنا بعض القسمات والملامح التي تبرز شخصية الناس في القدس وفلسطين بكل مقوماتها بين الشخصيات الجماعية الأخرى، وتكشف عن مدى الخوف والكبت والذي دفع الناس إلى عمل الحفر العميقة؛ لإخفاء أموالهم. والذاكرة الشعبية لم تنس بعد الحكايات الكثيرة، عن القدور التي يعثر عليها فجأة، وفيها سكة الذهب والفضة، ضربت في عصر بيننا وبينه قرون وقرون، ولا تزال ألسنتنا تستعمل إلى اليوم عبارات تدل على هذه الصورة، وهي (إخراج ما تحت البلاطة)[٨٥] وكأن هذه الحيلة نتيجة ظروف تاريخية، ووسيلة حماية مقصودة، وتتصل بالتطور التاريخي للقدس وفلسطين . التي وقع في وجدانها أيام احتكر القلة رزقها وأيام اغتصب الطغاة والبغاة من الأجانب أرضها، وهذا ما يزيد من أهميتها بوصفها جزءًا من تطور الظروف السياسية والاجتماعية والثقافية للقدس وفلسطين.[٨٦] ولعل العثور على تلك النقود داخل أوان فخارية في بيت المقدس يرجع إلى بقايا تقليد شعبي قديم عند إقامة دار جديدة للسكن أن يدفن تحت عتبتها قدر بها بعض العملات أو غيرها بغية التبرك وجعل الدار دار سعادة من جهة أخرى أو بمعنى آخر فداء للدار عند أسياد الأرض من أهل الجان بالمال المكتنز في قدر، وفي بعض القصص الشعبي يرد في كثير منها ذكر الكنوز المخبأة في القدور المدفونة تحت العتبة.[٨٧]

١٠ـ القدس العقوبة والتطهير

ومن عادات أهل بيت المقدس التي لفتت أنظار بعض الرحالة الأجانب، أنه كان في وادي اليوسيفات عين ماء تسمى "نبع العذراء" أو نبع النساء المتهمات حيث أعتيد تسميتها بذلك، فقد جرت العادة أن يجري بها نوع من الاختبار لمن تتهم من النساء بعدم الطهر والشرف، فمن تشرب من ماء تلك العين وتكن مذنبة فإنها تموت[٨٨]، أما إذا كانت بريئة فإنها لا تصاب بأي أذى أو ضرر ومما يؤكد أن هذه العين وتلك العادة قديمتان ما يرويه مجير الدين عنها بقوله: أنها كانت تسمى "عين المقذوفات" وهي معروفة منذ زمن بني إسرائيل وكانت بالقرب من عين سلوان ويقول: "عن سعيد بن عبد العزيز أنه قال: كان في زمن بني إسرائيل في بيت المقدس عند عين سلوان عين وكانت المرأة إذا قذفت أثوابها إليها فشربت منها فإن كانت برئية لم يضرها وإن كانت غير بريئة طعنت فماتت فلما حملت مريم عليها السلام أتوا بها وحملوها على بغلة فعثرت بها فدعت الله أن يعقم رحمها فعقمت من يومئذ فلما أتتها وشربت منها لم تزدد إلا خيرًا فدعت الله أن لا يفضح بها امرأة مؤمنة فغارت تلك العين من يؤمئذ".[٨٩]

ولعل فكرة العقوبة والتطهير المرتبطة بعين المقذوفات نجدها شائعة في التراث الأسطوري لشعوب المنطقة العربية القديمة (السامية) حيث نجد أن كل شعب أو قبيلة أو رهط أو قوم، يحمل معه أسطورته التي دفعت به إلى الوجود، وأحلّته محلته، ورسمت لبعضهم أرض ميعاده، وإذا عدنا إلى كتاب التيجان، أخبار عبيدة بن شرية الجرهمي نجد أن عادًا ينسب إلى نوح، وكان له عشرة أولاد منهم شداد أول ملوكها الذي بنى مدينة ارم ذات العماد التي استحقت العقاب الإلهي، ثمة حكايات عن ارم تناولها الأجداد والقصاصون الشعبيون، والشعراء والأدباء .بل انعكست فكرة التطهير على تفسير معنى واسم مدينة بيت المقدس في كتابات المؤرخين والرحالة وأصحاب فضائل البلدان فيقول صاحب الأنس الجليل: "وبيت المقدس بفتح الميم وسكون القاف أي المكان المطهر من الذنوب واشتقاقه من القدس وهي الطهارة والبركة فمعنى بيت المقدس المكان الذي يتطهر فيه من الذنوب ويقال المرتفع المنزه عن الشرك والبيت المقدس بضم الميم وفتح الدال المشددة أي المطهر وتطهيره إخلاؤه من الأصنام".[٩٠]

ومن تراث هذه المنطقة الحكائي، أسطوريًا كان أو تاريخيًا، دينيًا أو شعبيًا، ثمة تركيز على عملية تقويم وتطهير مستمرة تقوم على فكرة الجزاء: الذنب والعقاب، الخير والثواب، هذه الركيزة الأخلاقية، واستعجال الحساب في الدنيا، لم يلغها الإسلام وإنما أكدها، وفصل فيها ألوان الثواب والعقاب في الآيات والأحاديث، وسواء فسرت هذه النصوص بمدلولها اللفظي - المادي الواقعي، أو بمد مدلولها الرمزي المعنوي فإنها لا تخرج عن هذا الإطار، لقد استحق آدم الهبوط إلى الأرض لذنب العصيان، وأصبح وجه حام أسود مع نسله الزنوج لأنه نظر إلى عُري أبيه، واستحق قوم نوح وعاد وثمود العقوبة الجماعية لأنهم ضلّوا وأضلّوا وعتوا في الأرض مفسدين، وعلى البحر الميت

ضربت سدوم وعمورة وخرج لوط مع ابنتيه واحتمى بالمغارة . وفي حين أن القصة القرآنية تكتفي بالحَدَث الأساسي لأن الغاية ليست كتابة التاريخ وإنما العبرة والهداية، فإن الرواية الإسرائيلية تستمر في الأسطرة، فهاتان ابنتا لوط تسقيان أباهما الخمرة وتضاجعانه ليأتي من نسلهما الموآبيون بداة الأردن والعموريون القبائل الزراعية فيها، ويقال إن موسى حرم على الاسرائيليين في سناء قتال الموآبيين والعمورنيين لأنهما عبريون من نسل لوط، على عكس ما أوصاهم بالنسبة للحثيين والآموريين والكنعانيين. جاء في سفر التكوين "أما مدن هؤلاء الشعوب التي يعطيك الرب إلهك نصيبًا فلا تستبق منها نسمة". هكذا تصبح العقوبة عند يهوه الإله اليهودي نتاجًا لشهوة الدم والإفناء للشعوب غير الإسرائيلية، ويقوم بحمل هذا الأمر اليَهْوِي شعب يحترف القتل ويقدس المدنس.[٩١]

١١ـ الأساطير والحكايات الشعبية التي تناولت آبار وعيون القدس المائية

على جانب آخر؛ نجد أنه كان للعيون المائية والآبار في القدس سحرها وعجائبيتها بل ورهبتها في النفوس على مر العصور، وقد حظيت بعض الآبار والعيون شهرة تاريخية ودينية كـ(عين سلوان) الذي اعتقد الناس في قدسيتها والتي اكتسبتها من المرويات التي أبدعتها القريحة الشعبية بملكاتها الذهنية التي تصل بها إلى حد الموهبة في حياكة القصص الشعبي المدعم بالأدلة والبراهين التي لا جدال فيها والتي قد يعد الاقتراب منها ونقدها من المحاذير الكبرى ويعلل ابن الوردي تلك القداسة التي أحاطت بعين سلوان فيقول: "وبهذا الخندق عين سلوان وهي التي أبرأ فيها المسيح الضرير الأعمى".[٩٢]

ويقول صاحب الأنس الجليل تحت باب (ذكر عين سلوان وغيرها مما هو بظاهر القدس الشريف): "أما عين سلوان فهي بظاهر القدس الشريف من جهة القبلة بالوادي يشرف عليها سور المسجد القبلي وروي عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي (ﷺ) أنه قال إن الله اختار من المدائن أربعًا: مكة وهي البلدة والمدينة وهي النخلة وبيت المقدس وهي الزيتونة ودمشق وهي التين، واختار من الثغور أربعة إسكندرية مصر وقزوين خراسان وعبدان العراق وعسقلان الشام، واختار من العيون أربعًا فيقول في محكم كتابه العزيز: (فِيهِمَا عَيْنَانِ تَجْرِيَانِ) وقال: (فِيهِمَا عَيْنَانِ نَضَّاخَتَانِ) فأما اللتان تجريان فعين بيسان وعين سلوان، وأما النضاختان فعين زمزم وعين عكا، واختار من الأنهار أربعا سيحان وجيحان والنيل والفرات. وعن خالد بن معدان أنه قال زمزم وعين سلوان التي ببيت المقدس من عيون الجنة، وعنه أنه قال مَنْ أتى بيت المقدس فليأت محراب داود وليصل فيه وليسبح في عين سلوان فإنها من الجنة ولا يدخل الكنائس ولا يشتر فيها فإن الخطيئة فيها مثل ألف خطيئة والحسنة مثل ألف حسنة".[٩٣] وعنها يقول الموروث الشعبي: "سلوان محلة في ربض بيت المقدس تحتها عين غزيرة تسقي جنانًا كثيرة وقفها عثمان بن عفان على ضعفاء بيت المقدس. قالوا: إن ماءها يفيد السلو إذا شربه الحزين ولهذا قال رؤبة: لو أشرب السلوان ما سلوت"[٩٤] وعنها يقول الرحالة ناصر خسرو: "ويمر ماء هذه العين بقرية شيدوا فيها عمارات كثيرة وغرسوا بها البساتين ويقال أن مَنْ يستحم من ماء هذه العين يشفى مما ألم به من الأوصاب والأمراض المزمنة وقد وقفوا عليها مالاً كثيرًا".[٩٥]

إن موارد المياه عند الإنسان الديني مكان مقدس، فالمكان في مفهومه غير متجانس دنيوي وديني. وإن شعائر دينية معينة تستمر في الحياة، وتقع موارد المياه من ضمنها، تحافظ على قدسية هذه الموارد، كنبع زمزم، وأفضل هدية مباركة يحملها الحاج شيء من ماء هذا النبع ولهذا ربما حاول الوجدان الشعبي المقدسي أن يربط بين قدسية ماء زمزم وبين بعض العيون الواقعة في بلده التي تتيح لها أن تجد مكانًا ونصيبًا من تلك القدسية الدينية.

وجاءت رؤية الناس لعيون الماء بالقدس مثقلة بالخيال الذي يكشف عن ماهية القراءة الشعبية للتاريخ، وهي قراءة تُعَدّ سندًا لوجودهم الآني ودعما لهويتهم تحقيقًا للذات الجماعية التي تصر على إثبات دورها في صياغة التاريخ بشكل مباشر أو غير مباشر، لإزاحة الغبار الذي غطى حياة تلك العيون والآبار الذي عليها قوام حياتهم، فتضافرت سويًا عناصر الخيال وعناصر التاريخ بشكل متناغم بات واضحًا في إسهاب الرحالة والمؤرخين والجغرافيين، وكُتَّاب الفضائل في سياق وصفهم لعجائب العيون والآبار، والتفاعل البشري مع صفات تلك الآبار والعيون والي قدموها لنا مزجًا بين القياس على الصفات المحسوسة المألوفة. وبين التصور الذي اصطنعه ذلك الخيال من هنا تأتي عجائبيتها ومطلقيتها. مثل تلك العين التي ألمح لها الوجدان الشعبي بأن بها صفات خارقة لاكتساب الخلود .وذلك في سياق حديثهم عن الـ "الخضر" عليه السلام فيقول الموروث الشعبي: "قد ذهب جماعة من العلماء إلى أن الخضر نبي وذهب آخرون إلى أنه ولي وكثير منهم ذهب إلى أنه حي وهو يصلي الجمعة في خمسة مساجد في المسجد الحرام ومسجد المدينة ومسجد بيت المقدس ومسجد قبا ومسجد الطور في كل مسجد جمعة ويأكل اكلتين من كمأ وكرفس ويشرب مرة من ماء زمزم ومرة من جب سليمان الذي ببيت المقدس ويغتسل من عين سلوان قال الشيخ أبو محمد نصر البندنيجي سألت الخضر أين تصلي الصبح فقال عند الركن اليماني قال واقضي بعد ذلك شيئًا كلفني الله قضاءه ثم أصلي الظهر بالمدينة وأقضي شيئًا كلفني الله قضاءه، وأصلي العصر ببيت المقدس حكى ذلك صاحب (مثير الغرام) وغيره وسبب حياته - على ما حكاه البغوي - أنه شرب من عين الحياة ثم قال عند مجمع البحرين عين تسمى عين الحياة لا يصيب ذلك الماء شيئًا إلا حي".[٩٦]

ولا يمكن أن نخطئ الروابط بين هذا الحطام الرمزي في المعتقدات الشعبية وبين ما شاع بين الناس عن وجود نبات أو ماء سحري مجدد للشباب ومجدد للحياة، والذي يساعد على تأجيل وقوع الموت للإنسان، أو للبطل في الملاحم والحكايات والقصص الشعبي، وقد أتت فكرة ماء أو نبات الشفاء تحولاً عن فكرة أسطورية أقدم، وهي فكرة ماء أو نبات الحياة أو الخلود أو تجديد الشباب، وهوما

نلمحه في بعض نصوص التوراة وبعض الملاحم الشعبية التي تضمنت أفكارًا أقدم ترتبط بالعبادات الطوطمية.[٩٧] وما يهمنا أيضًا في تلك المرويات السابقة أن فكرة الخلود نجدها متجذرة في موروثاتنا الشعبية فقد سعى لقمان إلى الخلود عن طريق نسوره، كما سعى إليه الخضر، وفاز به في الموروث الشعبي، حتى أصبح رمزًا لاستمرار الحياة. ونجد بقايا ذلك في عادة جرت عليها بعض الأمهات، عند ما يشرق الطفل وتخاف على حياته، تقول له "خضر" كأنها تطلب له حياة الخضر. وللخضر عند الفلسطينيين مكانة واعتقادًا وطقوسًا يقيمونها في مزاراته المختلفة في معظم أنحاء فلسطين أبرزها تلك التي بمدينة دير البلح جنوب فلسطين وفي قرية (الخضر) التي سميت باسمه شمال مدينة الخليل ويحتفي به المسيحيون من أبناء فلسطين في عيد (مار إلياس) فيقولون :"عيد الخضر حرام حط النير ع البقر" حيث يصادف عيده في السادس من شهر آيار (مايو) من كل عام حيث ينتهي ميقات حرث الأرض [كراب وتثنية وتثليث] وتبدأ الحرارة في الارتفاع لذا يوصون مع ميقات العيد هذا بعدم استخدام البقر للحرث، وكثيرًا ما يقدمون (النذور) في مزاره مستهلين دعاءهم بقولهم: "يا خضر يا أخضر).[٩٨]

والخضر في الموروثات الشعبية الاعتقاديّة هو الذي قام بدفن آدم، وهو صاحب موسى ووزير ذي القرنين اليمني، وصاحب الظهورات التي تدل عليها المقامات. وبعد الإسلام بقيت أنماط سلوكية جديدة كانت في الأصل تحمل مضمونات رمزية، مثال ذلك: السعي بين الصفا والمروة، وهو الرمز التاريخي لقيام هاجر بالبحث عن أسباب الحياة - الماء-، والإشارة إلى هذه النعمة الأساسية التي كانت منها الحياة واختصت بها الأرض دون الكواكب " وَجَعَلْنَا مِنْ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ " وإذا أوغلنا في تتبع المعتقد الشعبي بقدسية مياه زَمْزم التي انبجست في هذه الحادثة التاريخية، بالرغم من أنها مجرد نبع ماء، نستطيع أن نجد الخيط الذي يربط هذا الاعتقاد الشعبي بالفكر الإسلامي نفسه. إننا لا يمكن أن نتجاهل اتجاه هاجر الخارجي في سعيها بين الصفا والمروة مستشرفةً قافلةً تحمل ماء لتسقي ولدها إسماعيل، واتجاهها الداخلي النفسي بكليتها إلى الله في طلب هذه الحاجة . ومجيء النجاة إلهيًا متمثلاً بانبجاس الماء، وهذا يتسق تمامًا مع دعوة الإسلام إلى طلب الحاجة ممن وحده يقصد في الطلب وهو الإله عز وجل.

ومع مجيء الإسلام وسيادة التوحيد كان من الطبيعي أن يتم إبعاد المضمون الوثني، مع الإبقاء على سلوك بعض الطقوس القديمة ضمن صياغات جديدة مثال ذلك طقوس الاستسقاء القديمة للمعبود حَدَدْ، ثم صياغتها بشكل عقلاني ومنظم في الإسلام، وهو الصلاة والتضرع لِلّه، مع بقاء رموز قديمة في المعتقد الشعبي، كأن يلبس المصلي جبة أو يحمل مظلة إلى أن انتهى ذلك بصياغة الفاصل الغنائي الفني الرائع وهو موشح (إسق العطاش) ونجد استسقاء مغايرًا، هو استعطاف الشمس لإرسال نورها ودفئها، والشمس من المعبودات القديمة، وقد أقام عرب الجاهلية لها صنمًا بيده جوهرة على لون النار، وله بيت وسدنة وحُجّاب، وكانوا يأتون البيت ويصلون فيه ثلاث مرات في اليوم، يسجدون للشمس إذا طلعت وإذا توسطت السماء وإذا غربت، ولهذا نهى الرسول صلى الله عليه وسلم عن الصلاة في هذه الأوقات.[٩٩] ولا نستبعد أن الوجدان الشعبي الفلسطيني في القدس كان متعمدًا في إحاطة الآبار والعيون بهالة قدسية، وكان يهدف من وراء ذلك الحفاظ على المياه من العبث والتعدي فنسجت المخيلة الشعبية حول شريان حياتها أساطير حافظة، وصلت إلى حد العبادة والتقديس أحيانًا، لاسيما وأن تقديس مصادر المياه ما زال معتقدًا لدى كثير من العامة إلى اليوم.

١٢ـ القدس وصبر أيوب!!

أسطورية آبار القدس لم تتكون دفعة واحدة، وإنما استمر كل جيل يضيف إليها من خياله ما يوائم تصورات عصره، وما يزيد من تأثيرها في نفوس محبيه، فتباينت أساطير المياه في القدس بحسب الزمان والمكان، ولا يوجد مصدر تناول أي جانب من جوانب القدس إلا وللآبار والعيون فيه مكان ومكانة، فقد ظلت أسطورية مياه القدس وأرضها تسيطر على أذهان وعواطف الناس لقرون طويلة، ظن الوجدان الشعبي فيها أن للآبار خواص سحرية وعجائبية وهوما نتلمسه في سياق حديث العديد من الرحالة والمؤرخين عن "بئر أيوب "فنجد أن مجير الدين الحنبلي في أنسه الجليل يقول عنه: "(بئر أيوب) وهو بالقرب من عين سلوان نسبته إلى سيدنا أيوب عليه السلام وحكى صاحب كتاب الأنس في معنى هذه البئر قال قرأت بخط ابن عمي أبي محمد القاسم وأجازه لي قال: قرأت في بعض التواريخ إنه ضاق الماء في القدس بالناس فاحتاجوا إلى بئر هناك فنزلوها طولها ثمانون ذراعا وسعة رأسها بضعة عشر ذراعا وعرضها أربعة أذرع وهي مطوية بحجارة عظيمة كل حجر منها خمسة اذرع واقل وأكثر في سمك ذراعين وذراع فعجبت كيف نزلت هذه الحجارة إلى ذلك المكان وماء العين بارد خفيف ويستقى منها الماء طول السنة من ثمانين ذراعا وإذا كان في الشتاء فاض ماؤها وفار حتى يسيح على وجه الأرض في بطن الوادي وتدور عليه ارحية تطحن الدقيق فلما احتيج إليه وإلى عين سلوان نزلت إلى قرار البئر ومعي جماعة من الصناع لأثقبها فرأيت الماء يخرج من حجر يكون قدره نحو ذراعين في مثلها وبها مغارة فتح بابها ثلاثة أذرع في ذراع ونصف يخرج منها ريح بارد شديد البرد وأنه حط فيه الضوء فرأى المغارة مطوية السقف بحجر ودخل إلى قريب منها ولم يثبت له الضوء فيها من شدة الريح الذي يخرج منها وهذه البئر في بطن الوادي والمغارة في بطنها وعليها وحولها من الجبال العظيمة الشاهقة ما لا يمكن لإنسان أن يرتقي عليها إلا بمشقة وهي التي قال الله تعالى لنبيه أيوب عليه السلام (ارْكُضْ بِرِجْلِكَ هَذَا مُغْتَسَلٌ بَارِدٌ وَشَرَابٌ) انتهى كلامه وهذه البئر مشهورة معروفة في كل سنة عند قوة الشتاء وكثرة الأمطار"[١٠٠] ويضيف الرحالة المقدسي: "سلوان: محلة في ربض المدينة تحتها عين عذيبية تسقي جنانًا عظيمة، أوقفها عثمان بن عفان على ضعفاء البلد، تحتها بئر أيوب ويزعمون أن ماء زمزم يزور ماء هذه العين ليلة عرفة".[١٠١]

هذه التفسيرات الشعبية التعليلية لأصول نشأة العيون والآبار كانت بمثابة التعبير عن ثقافة أهل بيت المقدس وأن المجتمع المقدسي عاش حياته الاجتماعية بالشكل الذي يوافق موروثه الثقافي الموغل في أعماق الزمن، والذي يحمل العديد من الممارسات التي تداخل فيها الموروث الشعبي والديني بكل ما يحمله من أساطير ورموز وحكايات وأشعار. مثل اهتمام أهل بيت المقدس بالاستحمام في بعض العيون والآبار المخصصة لكل داء لديهم وهوما ألمح إليه الرحالة شمس الدين المقدسي بقوله: "يذكرون أنه كان عليها بما يدور بيوت كل بيت لعلة فكل من به تلك العلة واغتسل فيه برأ إلى وقت أرسطاطاليس، ثم سأل ملك ذلك الزمان هدم هذه البيوت لئلا يستغنوا عن الأطباء وصحت لي هذه الحكاية !! "[١٠٢]ولعل تلك الرواية تكشف لنا عن احتفاء الوجدان الشعبي وإدراكه لقيمة العلم والعلماء وإعلائه لصوت العلم من خلال سعيه لإيجاد دورًا مؤثرًا للأطباء في المجتمع !.

ويستمر الموروث الشعبي في حديثه عن عجائب العيون والبرك والآبار بالمدينة المقدسة فيعرج بنا على بركة تسمى (بركة سليمان) فيقول: "جعل سليمان عليه السلام تحت الأرض بركة وجعل فيها ماء وجعل على وجه ذلك الماء بساطًا ومجلس رجل جليل أو قاض جليل فمن كان على الباطل إذا وقع في ذلك الماء غرق ومن كان عل الحق لم يغرق."[١٠٣] وتشير المصادر التاريخية التي تتحدث عن أهل بيت المقدس أن الكثير من المسيحيين من أبناء القدس جرت بينهم عادة لدي بعضهم بالذهاب إلى بركة ماء بداخل المدينة يقال أنها بركة سليمان يذهب إليها المرضى ويظلون ينظرون حتى تتحرك مياهها وأول شخص ينزل إلى الماء عندما يتحرك يشفى من مرضه.[١٠٤]

ويمدنا الرحالة المدجن عبد الله بن الصباح (في القرن الثامن الهجري) ببعض عادات أهل بيت المقدس في اعتقادهم ببركة ماء المسجد الأقصى بقوله :"كفى بهذا البيت المقدس أنه تسلم عليه كل ليلة اثنان وسبعون ربحًا إذا كان آخرها الريح الطيب تصبح السقوف متاع قباب الحرم تقطر ماء إلى وقت الظهر يكحل الناس بها أعين المرضى فيشفون بإذن الله."[١٠٥] ويهمنا أن نلاحظ تلك الصلة بين المعتقد الشعبي الديني والعادات الجارية، فإذا كان قد نسى هذا المعتقد إلا أننا نستطيع أن نتعرف عليه من هذه العادات ذاتها، فعادة الشفاء بالاستحمام تأثرت كثيرًا بالمعتقدات الخاصة بشفاء أيوب في بلواه. وهو اعتقاد مرتبط بالتراث الخاص بالمنطقة نفسها الأمر الذي يؤكد صدق تواصل أجيال أهل بيت المقدس وامتداد المعتقدات والممارسات الشعبية المقدسية التي تبرز القسمات الواضحة لشخصية المدينة المقدسة.

والتي تؤكد على بقاء الشخصية الفلسطينية في استمراريتها مستوعبة الماضي بعبقه الديني تحمله وتحميه وتأخذ به نورًا للهداية مع كل نبي ورسول شرف أرضهم وشرفت به. فكان من تلك الكوكبة النبي أيوب عليه السلام العربي الأيدومي الفلسطيني في منتصف القرن الثالث عشر قبل الميلاد. فكان آية في الصبر على الآلام وتحمل المشاق والبلاء دونما استسلام أو يأس وسجل الفلسطينيون صورة أيوب في ذاكرتهم الشعبية وأمثالهم اليومية وتغنوا به في أهازيجهم وأسبغوا على قراهم وأديرتهم وآبارهم اسمه، واتخذوا له موسمًا سنويًا تفرد عن المواسم الأخرى بالإضافة لفضيلة (الصبر) بظاهرة لقائهم على شاطئ البحر وتمظهر ذلك في أمثالهم الشعبية بقولهم :"صبرنا ع المكتوب صبر أيوب"، "الصابرين ع خير". وقولهم: "مَنْ صبر نال ومَنْ لج كفر". "طولة الروح والصبر أحسن دوا لعوادي الدهر"، "إن طال مشوارك استرجيه"، "اصبر ع الحصرم بيصير عنب"، ومن قولهم: "الصبر بودي القبر"، "إن صبر صبر وإن ما صبر هادا الحبل وهادا الشجر".[١٠٦]

واتخذ المقدسيون والفلسطينيون للنبي أيوب موسمًا شعبيًا اختاروا له يوم الأربعاء من أيام الأسبوع فأسموه (موسم أربعا أيوب) يقام يوم الأربعاء التي يسبق (خميس الأموات) أو(خميس البيض) الواقع قبل عيد الفصح بثلاثة ايام ويسميه المسيحيون من الفلسطينيين (عيد العدس) تحريفًا لـ(خميس العهد) كما يحتفل الدروز من الفلسطينيين في موسم يسمونه (عيد النبي أيوب). حيث يخرج المقدسيون والفلسطينيون في هذا اليوم متجهين نحو البحر يصطحب البعض منهم الإبل والمواشي. ويتجه المرضى خاصةً ممَنْ يعانون من الأمراض الجلدية إلى البحر مرددين:

يا اللي بريت أيوب **ابرينا من ها الداء
يا اللي نجيت بالدعا ** نجينا من ها البلاء
يا رب يا شافي ** بحق سبع بحور
أرفع عذابك ومقتك **عن عبدك المغرور

وتجد امرأة تشكو عدم الإنجاب وتطلب من الله ببركة النبي أيوب (فك عاقتها) وتقف على شاطئ البحر وبجوار منها عجوز تغرف من مياه البحر (بكيلة أو ما يسمونه كباسات) وتصبها على رأس المرأة العاقر وبعدها تقودها داخل البحر لتغمس برأسها سبع مرات وعادة ما يكون رأس المرأة مربوطًا بخرز . في سبع موجات وهى تستنجد بالأنبياء قائلة: "لا كباس ولا لباس إلا أولاد زي أولاد الناس بحياة الخضر وأبو العباس". وتستغيث أخري بقولها: "يا بحر اجيتك مدهوشة.. بدي ولد والوشوشة.. يا بحر أجيتك عطشانة.. بدي ولد شوشته مرجانة.. يا بحر اجيتك مشتطه.. بدي ولد على رأسه حطه". وفي القدس تذهب العديد من البنات اللاتي لم يتزوجن بعد إلى بركة أيوب فتغتسل بماء أيوب وهى تناجيه: "يا بير جيتك زايرة ..من كتر ما أنا بايرة ..كل البنات تجوزت .. وأنا عندك دايرة".[١٠٧] وفي المعتقد الشعبي تُعَدّ مواطن الماء من الأماكن المقدسة التي تستجاب فيها الدعوة وتذكر روايات سيرة بني هلال أن خضرة الشريفة دعت ربها بجوار الماء أن يمنحها غلامًا. واختلفت الروايات في كون هذا الماء عينًا أم بركة أم نهيرًا أم بحرًا فالمكان المقدس هنا يلعب دورًا مهمًا في استجابة الدعوة لتصبح نبوءة.[١٠٨]

وأما أيوب نفسه، الذي تحول في القصص الشعري الغنائي الشعبي العربي؛ إلى نموذج لصفة الصبر، فنحن نعرف قصته الأصلية

الواردة في سفر التكوين (الإصحاح الأول إلى الإصحاح الثاني والأربعين من سفر التكوين) وكيف كان رجلاً على قدر كبير من التقوى ووفرة المال وطيب النفس، ثم امتحنه ربه في ماله فصبر، وامتحنه في جسمه "وضرب أيوب بقرح ردئ في باطن قدمه إلى هامته، فأخذ أيوب لنفسه شقفة ليحتك بها وهو جالس في وسط الرماد فقالت له إمرأته: أنت متمسك بعد بكمالك بارك الله وموت فقال لها الخير نقبله من عند الله والشر لا نقبل" وتنتهي القصة المقدسة بأن "بارك الله آخرة أيوب أكثر من أولاده" وضاعف له الراحة ومد في عمره عشرة سنين ومائة ورأى أربعة أجيال من ذريته، وماله يزيد ويثرو. ويعزو الذهن الشعبي إلى أيوب أنه دهن جسمه بدهان نبات الرعرع فشفى. وهذا النبات عميق الخضرة، كان يستخدم في العقاقير والطيب عند الفراعنة . وأهم من هذا، إن في خضرته العميقة، ما يرمز إلى خصوبة تجدد الميلاد في الطبيعة ذلك الأمر الذي توليه المعتقدات الشعبية أهمية عظمى.[١٠٩]

ولعل الخوف من انتهاء الحياة على سطح الأرض دفع العامة، حين خسوف القمر، إلى إحداث أصوات عالية بالضرب على الطناجر والهاون والصفائح معتقدين أن القمر قد بلعه الحوت، ونعود إلى وراء فنجد أن قريشًا كان طوطمها الحوت، وفي أسطورة الخلق القريشية أن الله خلق الأرض على ظهر حوت، والحوت في الماء، والماء على ظهر صفاة، والصفاة على ظهر ملَكَ، والملكُ على صخرة، والصخرة في الريح. إن الحياة تستمر، ليس في شكلها الواقعي على ظهر الأرض فحسب وإنما في ذلك الحطام الهائل والمتراكم من الرموز الأولى في أغانينا وأشعارنا وأمثالنا الشعبية.[١١٠]

فالماء هو مصدر الخصب والحياة، وهناك كثير من العادات والتقاليد تحمل هذه الرموز ومنها التعميد بالماء[١١١] وقطرات الزيت كمصدرين للخصب والنور[١١٢]، وبالتالي لا يمكن أن نغفل الروابط بين هذا الحطام الرمزي في المعتقدات، وبين بروز العنصر المائي في أساطير الخلق في مصر القديمة مع المحيط الأزلي الذي يعد عاملاً مشتركا في جل أساطير الخليقة في العالم كله، وموارد المياه عند الإنسان مكان مقدس، فالمكان في مفهومه غير متجانس دنيويا ودينيا، وأن كانت شعائر دينية معينة تستمر في الحياة وتقع موارد المياه من ضمنها، وتحافظ على قدسية هذه الموارد.

وإذا حاولنا الوصول إلي الجذور الأسطورية للمياه فسنري أنها كانت تلعب دورًا بالغ الأهمية في المعتقدات والديانات القديمة والحديثة وسنجد شواهده ودلائل تشير إلي أي حد يقدسها الناس منذ حقب موغلة في الزمن، وصلاة الاستسقاء الجاهلية ذات دلالة تاريخية ودينية منذ القدم وكانت تعد من طقوس العرب الدينية القديمة، وكانت تشير بالمثل إلي تقديس الناس للماء لا بذاتها وإنما بالنظر إلي الأرواح التي تحل فيها. لكن خروج هذه الموارد المائية من دوائر هذه الشعائر، وارتباطها مباشرة بخطة تنظيمية عقلية تقوم عليها الدولة، كشبكات المياه الحديثة، وتخفف الإنسان من القلق في تأمينها أو انقطاعها، ابعد عنها صفة القداسة.، إننا نقف اليوم أمام خزانات المياه الرئيسية في المدينة فلا يثير فينا هذا الوقوف أية مشاعر قدسية!!!

١٣ـ القدس بين الحسد والسحر

كذلك كانت غالبية سكان بيت المقدس من مسلمين ومسيحيين ويهود يعتقدون في الحسد، "عين الحسود" ويعتقدون أنها تسبب المرض والحزن، وانها يمكن أن تهدم المنازل، وتوقف الحرث، وتقتل الحيوانات والزرع، كما أنهم يعتقدون أن الأشخاص أصحاب العيون الزرقاء هم الأكثر تأثيرا من حيث الحسد، وللوقاية من عين الحسود فإنهم كانوا يأخذون قطعة من ملابس الشخص الذي يعتقد أنه يحسد غيره، ويحرقونها تحت الشخص الذي أصيب. كما كانت هناك طرق أخرى للتخلص من أثر "عين الحسود" سواء لدى المسلمين أم المسيحيين.[١١٣]

الحديث عن عادات أهل بيت المقدس في تعاملهم مع الحسد نجد أن الموروث الشعبي قد غذي تلك المعتقدات بالعديد من الأمثلة الشعبية التي تسجل موقف الناس من تلك العادة الذميمة فيقول الموروث الشعبي الفلسطيني: "عيون لكبار خراب ديار" وقد وجد الموروث الشعبي طريقة عملية يحترز بها من تلك العين المؤذية بقوله: "العين اللي بتصيب قلعها حلال "ويصنف الموروث الشعبي الناس إلى صنفين: "الناس يا فسد يا حسد"؛ فالبعض إما حساد يتمنون زوال النعم عن الآخرين وإما فسدة يبذرون الضغائن والفتن بينهم وكلاهما ممجوج ويلفظه الوجدان الشعبي الفلسطيني.

وفي الوقت نفسه يرى الوجدان الشعبي أن الغيرة عنده أرحم بكثير من الحسد فيقول: "الغيرة أحسن من الحسد" ويهزأ الموروث الشعبي بالحاسد عندما تصل به الدناءة لحسد أشياء ضئيلة ونعمة متواضعة لشخص بسيط فيقول: "حاسد القط ع كبر ديله" ولكن إيمان الناس بقدرة الله وحكمته جعلتهم يؤمنون بالمثل القائل: "إيش بده يعمل الحاسد مع الرزاق". وعليه كانت هناك عدة طرق شعبية بفلسطين عامة وبالقدس خاصة لمقاومة الحسد والحاسد إذا ما اكتشفوه من خلال نظراته بأن يردوا عليه فورًا وفي قلوبهم بكلمة "أخص" أو خمسة في عين الشيطان" وأحيانًا "خمسة وخميسة" وأحيانًا يردون بصوت مرتفع وبأسلوب مغلف بالطيبة المشفوعة بابتسامة خفيفة قائلين: "اليوم الخميس" ظنًا منهم أنها تعابير شعبية دارجة تمنع الحسد وترد كيده.

وهناك طرق شعبية أخرى كأن يضعوا على طاقية الطفل أو على كتفه "خمسة وخميسة" أي كف مصنوع من الذهب أو الفضة أو البلاستيك أو الخشب ومعه خرزة زرقاء وقطعة من الشبة. ويقول المثل الشعبي الفلسطيني: "بدك شبة وخرزة زرقا".[١١٤] وما زال إلى اليوم نجد بعض الناس يتحصنون ضد قوى الشر أو المرض بالحجابات والشبة والخرزة الزرقاء، ويرى البعض أن المقدسيين والفلسطينيين إذ يضعون على صدر الطفل قطعة من الشَّبة والخرزة الزرقاء المثقوبة فهم يرمزون بها لشعوب الشمال والبحر الغزاة،

الذين عانت فلسطين من ويلاتهم الكثير، والشبة رمز لبياض بشرتهم، أما الخرزة الزرقاء فرمز لزرقة عيونهم.[١١٥]

وسنجد في الروايات والأمثال الشعبية المتعلقة بهذا الجانب الاعتقادي انه قد أعطيت بعض الأعداد والحروف والأسماء قوى غامضة عبر التاريخ، ومنذ أن اعتبر فيثاغورس الأرقام جوهر كل الأشياء، وتحدث عن تناغمها كما الموسيقى، وحتى ظهور الفرق الغالية في الإسلام التي تعطي بعض الأعداد قداسة خاصة وقوة أسطورية وبها تستغيث والأعداد أو بعضها، بما تحمل من قوى استسرارية، واتفاق ظهوراتها في كثير من الأحيان. ومن هذه الأعداد المقدسة التي أحاطت بها هالة أسطورية واستقرت في الوجدان الشعبي الفلسطيني العدد خمسة، ولو استعرضنا ظهورات هذا العدد لوجدنا أنه يستحق التأمل والبحث والحديث عن أسطورة العدد خمسة وظهوراته يكاد لا ينتهي، إنها رمزية تندرج في نطاق الرمزية الكوزمولوجية، ظلت محافظة على قدسيتها واستسراريتها عبر العصور ولدى أغلب الشعوب رغم تغير المعتقدات والأديان، شأنها كشأن المكان المقدس. الذي يكون معبدًا وثنيًا ثم يصير كنيسة فجامعًا فمدرسة دينية. فالخمسة هم أصحاب الكساء أو أهل العبا، وهم محمد، علي، فاطمة، الحسن، الحسين، وفي القرآن: "وَيَقُولُونَ خَمْسَةٌ سَادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ" و"يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُم بِخَمْسَةِ آلَافٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُسَوِّمِينَ" و"مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوَى ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ".

ومن خواص الخمسة: أنها أول عدد دائري ومعناه أنها إذا ضربت في نفسها رجعت إلى ذاتها وإذا ضرب العدد الخارج منها في نفسه رجع إلى ذاته أيضًا، وهكذا دائمًا (مثال) ٥×٥=٢٥ وإذا ضربت ٢٥×٢٥=٦٢٥ وإذا ضربت ٦٢٥×٦٢٥=٣٩٠٦٢٥ وإذا ضرب هذا العدد في نفسه خرج نفسه وعدد آخر وبهذا حفظت الخمسة نفسها وما يتولد منها دائمًا بالغًا ما بلغ. فما أعظم الخمسة والوفق المخمس للحفظ أو ما نجده عند الشعبيين في القدس وفلسطين "خمسة وخميسة". ولما كان عدد خمسة يحفظ نفسه ويحفظ ما يتولد منه،[١١٦] وشكل صورته كروي هكذا (٥) فإن الله سبحانه وتعالى خلق الأرض كروية وكذلك السموات والهواء وجميع الكواكب والنجوم كروية مثل الخمسة، ولذلك تجد الجميع حافظًا نفسه وحافظًا لما يتولد منه (صُنْعَ اللَّهِ الَّذِي أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ إِنَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَفْعَلُونَ) (كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ وَعْدًا عَلَيْنَا إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ) أي دائرة كالخمسة نهايتها ابتداؤها. أما السنة فإن فيها مشابهة للخمسة في هذا المعنى لكنها ليست ملازمة كلزوم الخمسة ودوامها، فإنها تحفظ نفسها فقط، فلم يكن غريبًا أن تحتل الخمسة تلك المكانة الأسطورية في المعتقد الشعبي عند العديد من الشعوب منذ أزمنة غابرة. ومن الغريب أن نجد بعض الأقوال والأمثال التي تحمل رموزًا غامضة تعود إلى تلك الأزمنة وأساطيرها، من ذلك قول العامة: لاتعدّن بتطير بركتن، وللذي يباشر العد يلحقونه بهذه العبارة: عد جمال أبوك. والإبل وغيرها من الماشية هي المال، وللذي يباشر العد ونحن متخوفون من حسده نقول: خمسة بعينين الشيطان، خاصةً إذا بلغ العد خمسة وزاد.

وإذا بحثنا العوامل التي ساعدت على قدسية الخمسة التي أهلتها لأن تكون بمثابة رصد سحري ضد شر العين؛ فالخمسة عدد مقدس عند بعض المذاهب الغالبة فهي عدد أصحاب الكساء وهم في اعتقاد هذه المذاهب خمستهم شيء واحد، والروح حالّة فيهم سوية، فهم علة الإيجاد وسبب التكوين وسر الوجود، الخمسة هي عدد آيات سورة الفلق، المعوذة التي تقرأ لرد العين، وهكذا فالخمسة مؤهلة لتكون رصدًا سحريًا ضد قوى الشر مجسدة في كف مبسوطة تعلق على صدر الطفل، أو ما نريد حمايته، ومنها أنه حين تنحر ذبيحة لتفجير بئر ماء، أو اكتمال بناء بيت يغمس المالك يده في دم الذبيحة ويطبعها كفًا مبسوطة الأصابع الخمس على الجدار. والعدد خمسة في الملاعنة يحمل العقوبة الإلهية: الغضب واللعنة "والخامسة أن لعنة الله عليه إن كان من الكاذبين".[١١٧] وربما كان ذلك وراء تشاؤم بعض أهل فلسطين من العدد خمسة أو بسبب الفواسق الخمسة التي أباح الإسلام قتلها وهي فأرة البيت والحية والعقرب والحدأة والغراب وسميت كذلك بالفواسق على الاستعارة لخبثهن. ولهذا يتحايل البعض منعًا لذكر رقم خمسة خاصة لو سُئل أحدهم عن عدد الأولاد أجاب أربعة وواحد منعًا للحسد. وتجد البعض من الفلسطينيين لا ينطقون بالرقم خمسة دفعًا عن أذاه فيقولون في حياتهم اليومية: "عد كف" وأحيانًا يستعيضون بها بكلمة واحدة قائلين "كف"، وبتعبير آخر يقولون: "عدد اليد" وإذا تجاوز أحد الأفراد بأن ذكر الرقم واضحًا بقوله (خمسة) ردوا عليه (خمسة في عين الشيطان).[١١٨]

على جانب آخر نجد أن من العادات والوسائل الشعبية الأخرى التي لجأ إليها الشعبيون في بيت المقدس التي انتشرت بين مختلف الطوائف المسيحية بالقدس خلال عصر سلاطين المماليك، أنهم كانوا في حالة المرض ينذرون للكنائس والمعابد والأديرة زيتًا وشموعًا وبخورًا، أو ينقلون بعض النباتات الموجودة في جدرانها لإعطائها للمريض، أو يحملون بعض الأيقونات إلى غرفته وكذلك من العادات الخاصة بالمرض أنهم يلجؤون إلى تشريط جلد المريض بشفرة حادة كنوع من العلاج الذي له جذور سحرية وأسطورية. وإذا لم يحدث تقدم في حالة المريض فإن الخطوة التالية عادة ما تكون الكي بالنار، كذلك عند الإصابة بجرح من الجروح فإنهم يغطونه بعجينة من الغبار الدقيق المخلوط بالماء.[١١٩] وربما لجأ الكثير من أهل بيت المقدس إلى الأولياء حيث شاع في ذلك العصر بين المقدسيين عادة الاعتقاد في الأولياء والصالحين الذين يُحكى عنهم العديد من الكرامات مثل الشيخ :" أحمد جعارة الذي كان مجذوبا وله كرامات ظاهرة وأهل بيت المقدس يعتقدون صلاحه وحكي عنه أشياء تدل على ولايته توفي في شهر رمضان سنة ثلاث وسبعين وثمانمائة ودفن بماملا بالقرب من القلندرية نفع الله به".[١٢٠]

ما يهمنا في الروايات المتعلقة بطرق العلاج من الأمراض تلك الأفكار الشعبية المتجذرة في الموروث الشعبي الذي يعتبر أن الجامع أو الكنيسة هما المكان المبارك، الذي تنحل فيه العقد إذا أتى المرء ببعض الأعمال فيه، مثلما يفعل المقدسيون والتي تتشابه كثيرا مع الموروثات الشعبية المشبعة بالتراث الأسطوري السامي بالمنطقة العربية ونجده جليًا واضحًا فيما يفعله الحلبيون من وضع للأقفال على باب ضريح النبي زكريا في الجامع الكبير بحلب، أو تحنية كفَّي الطفل فيه ليلة العيد ليكون كثير الرزق، أو تبييت الأرملة أو العانس، في جامع البخاتي ليلاً، كي تخطب قبل ظهور نجمة الصبح (الزهرة) وهذه العادة، التي قد نظنها في شيء من الإسلام، تعود إلى عهود "أساطير الأولين"، والعزى نجمة الصبح هي إحدى بنات هُبل الثلاث، وكانت المرآة في الجاهلية إذا عسر عليها خاطب النكاح نثرت جانبًا من شعرها، وكحلت إحدى عينها، وحجلت على إحدى رجليها ليلاً وهي تقول: يا نكّاح ابغ النكاح قبل الصباح، أي قبل ظهور نجمة الصبح. ومواويلنا الشعبية تحفل بالتغني بنجمة الصبح، وكانت عبادة نجمة الصبح منتشرة في اليمن وخلال أعيادها يقام العرس المختلط، ومن طيور وحيوانات نجمة الصبح المقدسة الحمام والغزال، والعرب يشبهون المرأة الجميلة بالغزال. وتربط الحلبيات في هنهوناتهن بين نجمة الصبح والحب وأفراح العرس: يا نجمة الصبح فوق الدار عَلَّيتي شميتي ريحة الحبايب وجيتي ضوّيتي، ومنها ربط إبهامي قدمي الطفل الذي تأخر في المشي بخيط ليقطع الخيط أول خارج من صلاة الجمعة، ويقول له حامله: فك اشْكالووكول اللي في ديالو. أما الضرب بالمندل فيذكرنا بكأس جمشيد أو مرآة الإسكندر، ويرى فيه الرائي ما يحدث في مناطق بعيدة.[١٢١]

١٤ـ القدس والنبوءة

لا تتساوى الأماكن من حيث قيمتها عند معظم شعوب العالم وفي جميع المعتقدات البشرية، فهناك أماكن مقدسة وأخرى دنيوية، والأماكن المقدسة لا تتساوى في قداستها، فهناك درجات لهذه القداسة. ويذكر إلياد أن الرجل المتدين لا يرى المكان متجانس التكوين، فهو يجد فيه بخبرته تقاطعًا في اطراده فبعض الأماكن مختلفة عن الأخرى اختلافًا نوعيًا وهو يرى أن هناك أماكن مقدسة وأخرى غير مقدسة أو عديمة البنية أو غير متناسقة أو غير متبلورة. وليس هذا كل شيء، فالرجل المتدين يجد في انعدام تجانس التكوين للمكان تعبيرًا في التجربة الخاصة بالتضاد بين المقدس وهو المكان الوحيد الحقيقي، وهو أيضًا المكان الوحيد الموجود في الحقيقة، وبين الأماكن الأخرى المحاطة بامتدادات عديمة الشكل. والتجربة الدينية لانعدام التجانس في شكل المكان هي تجربة أولية تمثلها الإنسان في تصوره لتأسيس العالم وليس هذا الأمر تنظيرًا مجردًا ولكنه في الأساس تجربة دينية تسبق كل تأمل وتفكير عن العالم. وما يذكره إلياد عن اعتقاد المتدينين الأول ينطبق تمام الانطباق على المعتقد الشعبي في المجتمع العربي، فالأماكن تنقسم في المعتقدات الشعبية قسمين: أماكن مقدسة، وأخرى غير مقدسة يمكن أن نطلق عليها دنيوية، والأماكن المقدسة التي ارتبطت في العقيدة بتجلي المقدس عليها تكون قداستها بحسب درجات هذا التجلي.[١٢٢]

والأماكن ليست على درجة واحدة من القداسة، ففيها درجات تصل إلى قمتها. وفي المعتقد الإسلامي العربي ثلاثة أماكن مقدسة هي: البيت الحرام، ومسجد الرسول بالمدينة، والمسجد الأقصى المعروف ببيت المقدس. ويشترك أصحاب الأديان السماوية والمسلمون في الاعتقاد بقدسية بيت المقدس. وقد جسد المسلمون منذ الفتح العمري تقديسهم الروحي للقدس بأشكال مختلفة، إن كان بتشييد عمارتها، ولا سيما العناية ببناء المسجد الأقصى وما حوله، أو الاتجاه للتقرب منها، أو البدء بالحج منها إلى مكة، والسكنى بها وتكريس إسلاميتها وعروبتها في الوعي العربي والإسلامي بشتى الطرق. لم تبدأ علاقة الوجدان الشعبي العربي بالقدس بالفتح، إنما تكرست إسلاميتها منذ ذلك التاريخ، رغم الفسحة الواسعة التي تُركت لأصحاب الديانات التوحيدية لممارسة عبادتهم فيها، ومثلما يقول روجيه جارودي: "في عام ٦٣٨م لم يكن العرب من وصل إلى فلسطين، وإنما هو الإسلام... إذ أن العرب كانوا في فلسطين منذ أكثر من ثلاثة آلاف عام. أي منذ الهجرات السامية الأولى القادمة من الجزيرة العربية، تلك التي كانت تجوب أرجاء الهلال الخصيب من عموريين وكنعانيين وعرب، من ذوي أصل أثني واحد وأسرة لغوية واحدة"[١٢٣].

ولم تكن واقعة الفتح، في المخيلة الشعبية الإسلامية، سوى تجسيد لنبوءة نبوية سابقة على الواقعة نفسها، وكجزء من التاريخ الماورائي المخطط له ما قبل الزمان ومحفوظ في اللوح الشعبي، من هنا يحضر (الفتح) في الموروث الشعبي تصديقًا لوعد نبوي مسبق بهذا الفتح، واكتسب الانتصار الإسلامي على بيزنطة شكلاً رمزيًا يومئ إلى أسباب علوية وإلى إرادة الله بنصر دينه الحق.

١٥ـ القدس وأحلام العودة!!

وكانت الأحلام وما فيها من رؤى مصدر غامض تلعب دورًا هامًا في الموروث الشعبي المرتبط بعمران القدس، إذ كان يتقدم لينبه إلى الأحداث، ويؤثر إلى مكان الخطر أو مكان الانتصار، أو هو كذلك سبب لبناء وتشييد المدن والمساجد والقباب وإضفاء صبغة الكرامات عليها حيث تعتمد في ذلك على الرؤيا أو الأمر القدري الذي يرد أثناء النوم وهوما أكدته الروايات الشعبية التي دارت حول الأمر الإلهي ببناء بيت المقدس فيقول صاحب الأنس الجليل: "من العلماء من قال بني مسجد بيت المقدس آدم عليه السلام ومنهم من قال أسسه سام بن نوح عليهما السلام ومنهم من قال أول من بناه وأرى موضعه يعقوب بن إسحاق عليهما السلام روى أن أباه إسحاق أمره أن لا ينكح امرأة من الكنعانيين وأمره أن ينكح من بنات خاله فلما توجه إلى خاله لينكح ابنته أدركه الليل في بعض الطريق فبات متوسدًا حجرًا فرأى فيما يرى النائم أن سلمًا منصوبًا إلى باب من أبواب السماء والملائكة تعرج فيه وتنزل فأوحى الله إليه إني أنا الله لا إله إلا أنا وقد ورثتك هذه الأرض المقدسة وذريتك من بعدك ثم أنا معك أحفظك حتى أدرك إلى هذا المكان فأجعله بيتًا تعبدني فيه فهو بيت المقدس"[١٢٤]كما لعبت

الأحلام دورًا في النبوءة بخراب بيت المقدس فيقول ابن الجوزي في تاريخه:" زعم الأسدي عن أشياخه: أن رجلاً رأى في المنام أن خراب بيت المقدس وهلاك بني إسرائيل على يدي غلام يتيم ابن أرملةٍ من أهل بابل يدعى " بخت نصر " فأقبل يسأل عنه حتى نزل على أمّه وهي تحتطب فلما جاء على رأسه حزمَة حطبٍ ألقاها ثم قعد في البيت فكلمه ثم أعطاه ثلاثة دراهم فاشترى بها طعامًا وشرابًا فلَما كان في اليوم الثاني فعل به ذلك وكذلك في اليوم الثالث ثم قال له: "إني أحب أن تكتب لي أمانًا إن أنت ملكت يومًا من الدهر".[١٢٥]

وربما تسنى لنا إيجاد صلة بين هذه النبؤات وبين بيت المقدس بالرجوع إلى دلالتها الرمزية في المخيلة الشعبية في سياق ما كتبه ابن سيرين[١٢٦] عن رؤية بيت المقدس في المنام. إذ اعتمد ابن سيرين البيئة في تفسير الأحلام وربط بينها وبين ما يراه الإنسان في الأحلام ربطًا محكمًا فكان تفسيره للأحلام يقترب من وجدان الناس السياسي والاقتصادي والاجتماعي الديني والثقافي. فثقافة ابن سيرين في تفسير الأحلام توحي أن الرجل قد اقترب فيها من آراء نفسية ووجدانية صائبة، وأنها تلامس الواقع وتعبر عنه بأسلوب مثيولوجي يعبر عن الحقيقة لاسيما إذا وضعنا أمامنا أقوال معاصرة لعلم ما فوق الواقع (الميثولوجيا) يقول روجيه غارودي إن الأسطورة علم أولي. وبناءٌ على ذلك فإن المثيولوجيا في تفسير الأحلام عند ابن سيرين علم أولي أيضًا. فلا عجب أن يري ابن سيرين في كتابه (منتخب الكلام في تفسير الأحلام) أنه: "مَنْ رأى كأنه يصلي في بيت المقدس ورث ميراثا أو تمسك ببر ومَنْ رأى أنه على مصلى رزق الحج والأمن لقوله تعالى (وَاتَّخِذُوا مِنْ مَقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى) ومَنْ رأى أنه يصلي في بيت المقدس إلى غير القبلة فإنه يحج فإن رأى كأنه يتوضأ في بيت المقدس فإنه يصير فيه شيئا من ماله"[١٢٧] كما احتفى الموروث الشعبي كذلك بسليمان عليه السلام باعتباره أحد الذين شاركوا في تعمير بيت المقدس فيقول ابن سيرين في تفسره: "ومَنْ رأى " سليمان عليه السلام رزق الملك والعلم والفقه فإن رآه ميتا على منبر أو سرير فإنه "يموت خليفة أو أمير أو رئيس لا يعلم بموته إلا بعد مدة وقيل" مَنْ رأى "سليمان انقاد له الولي والعدو وكثرت أسفار".

كما أن الموروث الشعبي وضع فتح القدس في قلب الرؤية النبوية، فيُروى عن شداد بن أوس الخزري (ت. ٥٨ هـ/ ٦٥٩م) رواية تعد من ذخائر الموروث الشعبي العربي والإسلامي تقول أنه: "لما دنت وفاة رسول الله ﷺ قام شداد بن أوس ثم جلس، ثم قام ثم جلس، فقال النبي ﷺ ما قلقك يا شداد؟ فقال: يا رسول الله ضاقت بي الأرض، فقال: ألا إن الشام سيفتح إن شاء الله، وبيت المقدس سيفتح إن شاء الله، وتكون أنت وولدك من بعد أئمة بها إن شاء الله"[١٢٨]. ومن هنا أيضًا ما نسبه الموروث الشعبي إلى النبي ﷺ قوله: "أيها الناس أريد الروم". لكن المنية فاجأته، فأكمل أبوبكر الصديق وصيته، وراح يستنفر العرب من أجل فتح الشام وليس بيت المقدس وحده، فجهز أربعة جيوش من أجل ذلك".[١٢٩]

لذا توجهت أنظار المسلمين إثر استيلائهم على دمشق، صوب القدس، حيث جمع أبو عبيدة بن الجراح أمراء المسلمين للتشاور معهم، فسألوا عمر حول توجههم إلى القدس أم إلى قيسارية، فكانت نصيحة علي بن أبي طالب، بحسب الموروث الشعبي، إلى عمر أن يكون التوجه إلى فتح بيت المقدس، فأومأ عمر بكتاب إلى أبي عبيدة، جاء فيه "قد أشار ابن عم رسول الله ﷺ بالسير إلى بيت المقدس، وإن الله سبحانه وتعالى يفتحها على يديك"، وحالما استقبل قادة الجيش الكتاب "فرحوا بمسيرهم إلى بيت المقدس"[١٣٠]. تحكّم تلهّف المسلمين للالتصاق بالرموز والمعاني المقدسة الراسخة في خيالهم، في طريقة سلوكهم وهم يعبرون مدينة الإسراء والمعراج، والقبلة الأولى، وأرض المحشر والمنشر، فكان أول عمل قام به عمر هو السعي لمعرفة مكان المسجد الأقصى، والصخرة الشريفة التي عرج منها النبي ﷺ، فسار مع أربعة آلاف من رجاله، إلى أن وصل مكان الحرم الشريف، ففوجئ أن الرومان حولوه إلى موقع للزبالة، تتجمع فيه الأقذار، فنظر عمر وتأمل يمينًا وشمالاً، ثم قال: "الله أكبر، هذا والذي نفسي بيده مسجد داوود عليه السلام، وقد أخبرنا رسول الله ﷺ أنه أسرى به"، ثم بسط عمر رداءه، وبدأ يكنس الزبل المتراكم على أرض الحرم.[١٣١]

كان دخول المسلمين إلى القدس يمثل عودتهم إلى مدينة آبائهم في العقيدة، وعودة الصلة بقبلتهم الأولى، وتذكيرًا لهم بالأنبياء الذين ترسّخ ذكرهم في المدينة، وشكل ذلك فرصة لهم ليُظهروا تبجيلهم المناسب لها، فبدأوا ذلك في بناء مسجد على أرض الحرم الشريف، وكان مبنى المسجد خشبيًا متواضعًا، يتماشى مع مبدأ التقشف الذي طبع أخلاق المسلمين الأوائل.[١٣٢]

١٦ـ القدس في قمة التاريخ والتفسير

لم يتوقف الاهتمام بالقدس، مع انتهاء حقبة الخلافة الراشدية في سنة ٤٠ هـ، بل اتصلت مظاهر تبجيلها طول التاريخ الإسلامي، إلى يومنا هذا، وإن اتخذت لها أشكالاً ومواقف، فلقد حرص معاوية بن أبي سفيان، الخليفة الأموي الأول، أن يستقبل مبايعيه من الناس في القدس[١٣٣]، وقام بالصلاة في أثناءها عند جبل الجلجلة، أو جبل الصلبوت، وصلى أيضًا عند قبر السيدة مريم[١٣٤]، ولقد تولى الأمويون الخلافة إثر انشقاق كبير بين المسلمين، فنقلوا خلافتهم إلى الشام، ومن هنا تحرك التحالف الغير المقدس بين رجال الدين والسياسة وقد تجرأ العديد من الرواة القصاصين على اختلاق أحاديث منسوبة إلى الرسول الأكرم صلى الله عليه وسلم كما نسبوا قولها على لسان أئمة أجلاء هم أبرياء مما نسبته المخيلة الشعبية إليهم. وتم إعادة بناء عشرات الأحاديث النبوية للنبي ﷺ لتشمل الشام[١٣٥]، مثل الحديث الذي يُروى عن زيد بن ثابت عن النبي ﷺ: "طوبى للشام، إن ملائكة الرحمن باسطة أجنحتها عليها"[١٣٦].

لقد حرص الأمويون على أن يولوا القدس أميز القادة الأمويين، وأن يكون لها والٍ وقاضٍ خاصان بها[١٣٧]، ولكن أميز ما قدمه الأمويون، هو تشييدهم للجامع الأقصى، ومسجد الصخرة، والحرم، بطريقة لا مثيل لها في التاريخ الإسلامي، فقد بدأ عبد الملك بن مروان

(٦٥ - ٨٦هـ)، لسعة علمه وفقهه ومعرفته لمكانة القدس، في بناء أسوارها، وبواباتها، ودار الإمارة بجوار الحرم. وتوج أعماله التبجيلية تلك، ببناء مسجد قبة الصخرة، وأشرف بنفسه على بنائه، وخصص لبنائها "خراج مصر على مدى سبع سنين"[١٣٨]. وكان لعظمة البناء المشيد، ومشهديته الباهرة، أن اعترف "العباسيون بمأثرته"[١٣٩]. وبالفعل، امتازت قبة الصخرة بتصميمها الفريد في تاريخ العمارة الإسلامية، امتزج في روعتها الهندسية الذوق العربي بالأسلوب البيزنطي، حيث اشترك في عمارتها بناة من العرب والبيزنطيين، تحت إشراف رجاء بن حيوية أحد العلماء المسلمين، جليس عمر بن عبد العزيز، ويزيد بن سلام المقدسي، فهي قد شيدت فوق الصخرة الشريفة، على ساحات الحرم الشريف، بتشكيل ثماني، هو أقرب الأشكال إلى النمط الدائري، المعبر عن اللانهائية.. واستخدموا الحرف العربي، لغة القرآن، في زخرفة الفسيفساء، فتبعث الصفاء الروحي.[١٤٠]

واعتاد العرب المسلمون منذئذ، استعمال الحرف العربي، في التزيين، وفي إبراز جماليته، فغطت الكتابة على الجدران الداخلية والخارجية للمثمن، التي يبلغ طولها ٢٤٠ مترًا[١٤١]، وكُرّست النقوش التي تعلو الأقواس والأروقة الداخلية للقبة، المشيدة فوق الصخرة للآيات القرآنية التي ترد على الفكرة القائلة بأن الله اتخذ ولدًا، وتحذر ﴿إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللَّهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِنْهُ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَلَا تَقُولُوا ثَلَاثَةٌ انتَهُوا خَيْرًا لَكُمْ إِنَّمَا اللَّهُ إِلَهٌ وَاحِدٌ سُبْحَانَهُ أَنْ يَكُونَ لَهُ وَلَدٌ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلاً(١٧١) لَنْ يَسْتَنكِفَ الْمَسِيحُ أَنْ يَكُونَ عَبْدًا لِلَّهِ وَلَا الْمَلَائِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ وَمَنْ يَسْتَنكِفْ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيَسْتَكْبِرْ فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَيْهِ جَمِيعًا﴾/النساء[١٤٢] واستحوذ البناء المهيب على أفئدة المسلمين، ووجد فيه المتعبدون رمزًا للطريق الواجب سلوكه للارتقاء الروحي، وأرشدتهم رموز القبة إلى المراحل التي من الواجب سلوكها للوصول إلى الحقيقة الجوهرية للإسلام، فمدخل المسجد ذو القاعدة المثمنة الأضلاع، بقبته الدائرية، يبدو كأنه يمثل العبور إلى السماء، أما القبّة الشاهقة المكسوة بالذهب، فيشبهها الرائي بجبل من نور علوي، أو شمس ساطعة، تنقل المشاهد بأضوائها المتلألئة إلى أرفع المشاهد سموًا، ويدعوه إلى عالم جديد، يوحي إليه بوحدة الله الأزلية.

لهذا كله جذب مسجد الصخرة، المتعبدين، والأتقياء، والصوفية، الذين تحلقوا حولها، بزواياهم، ومدارسهم، أما الوليد بن عبد الملك (ت. ٥٩٦ - ٧١٥م)، فقد استأنف نشاط والده في تكريس إسلامية القدس، فأنجز بناءه (المسجد الأقصى) على الهضبة القدسية نفسها، التي أُقيم عليها مسجد الصخرة، وإلى الجنوب من هذا الأخير، على الطريق الجنوبي من الحرم، وهذا الحرم بناه أيضًا الوليد ليحضن داخله المسجد وقبة الصخرة[١٤٣]. ولقد أطلق المسلمون اسم "المسجد الأقصى" على الحرم وما بداخله من المسجد الأقصى، ومسجد الصخرة. ويعتقد أن (مسجد الأقصى) احتفظ قسمه الأوسط بترتيبه الأصلي، رغم عاديات الزمن، وما أصابه من أضرار زمن الصليبيين، والمسجد مؤلف من جناح مركزي عريض تحده أقواس ترتكز على أعمدة، وعلى جانبيه جناحان، وفي صدر المسجد جناح مصالب ضخم تقف عليه قبة في وسطه، وأضيف إليه اثنا عشر جناحًا على طرفي الأجنحة المركزية الثلاثة[١٤٤] وترتكز قبة المسجد على أعمدة عند مفترق الأروقة المتفرعة، وهناك تشابه كبير بين الأعمال التزينية المنفذة في المسجد الأقصى وتلك المنفذة في قبة الصخرة.[١٤٥]

وقد أقيم الحرم الشريف بطريقة، تجعله يحيط كسياج بالمسجد وقبة الصخرة وغيرها من المنشآت، ويشرف الحرم على سهل اللطرون من جهة الشرق، ويبلغ طوله ٢٨٠ مترًا في الجنوب، و٣١٠ مترًا في الشمال و٤٦٢ مترًا في الشرق و٤٩١ مترًا في الغرب، ويقوم على رواق يرتكز على أعمدة مربعة الشكل. يمكن الدخول إليها من أبواب كثيرة، كان عددها عند تأسيسه خمسين، بقي منها زمن الحنبلي، آخر العهد المملوكي، خمسة عشر بابًا[١٤٦]، وتبلغ مساحة المسجد الأقصى، أو المكان المحاط بالحرم مائة وواحد وأربعون ألف متر مربع.[١٤٧] وبجوار الحرم شيدت، في عهد الوليد، الكثير من الأبنية العامة، تبركًا بالجوار، كان أكثرها فخامة قصر الإمارة، المكون من طابقين، وشيدت سلسلة من المباني بمحاذاة الجدار الغربي للحرم، مهيئة لنزول الحجاج، مع بناء حمامات عامة، وهوما دفع أرمسترونغ، إلى التساؤل إن كان الوليد قد اعتزم جعل بيت المقدس عاصمة للدولة الإسلامية. ولما ولي سليمان بن عبد الملك (ت. ٩٩هـ. ٧١٧م) الخلافة، تمت مبايعته في القدس، ودأب سليمان على التردد إليها، وكان يطيل الجلوس في صحن مسجد بيت المقدس، مما يلي الصخرة، يستقبل الوافدين إليه هناك.[١٤٨]

لم يقتصر إجلال القدس على الأمويين وحسب، بل شمل هذا الإجلال عامة المسلمين بما فيهم المتشيعين لأبناء علي بن أبي طالب، فقد شاع في الخيال الشعبي أن الدماء نزفت تحت أحجار بيت المقدس، يوم قتل الأمويون الحسين بن علي (ت. ٦١هـ)، فيروي البيهقي عن ابن شهاب أنه في صبيحة قتل الحسين لم يُرفع حجر في بيت المقدس إلاّ وجد تحته دم. والأمر نفسه حدث يوم قتل والده علي بن أبي طالب[١٤٩]، ثم بعد أن تولى الخلافة العباسيون، ونقلوا مركزها إلى بغداد بدلاً من الشام، بقوا على تعلقهم بالقدس، بل حاولوا استثمار قدسيتها ليضفوا على سلطتهم الشرعية، فأشاعوا حديثًا نبويًا يقول "يخرج من خراسان رايات سود لا يردها شيء حتى تُنصب بإيليا"[١٥٠]، ولقد حرص العباسيون أن يولّوا على فلسطين أمراء من البيت العباسي، أو بعض الشخصيات المقربة منهم، وألحقوا غالبًا فلسطين بمصر أو دمشق[١٥١]، وحرص الخليفة المنصور على زيارة القدس مرتين، في سنة (١٤١هـ/ ٧٥٧م)، وفي عام (١٥٤هـ/ ٧٧١م)، وأعاد بناء الحرم الشريف بعد أن هدم الجانب الغربي والشرقي زلزال سنة (١٦١هـ/ ٧٧٦م)، كما زار الخليفة المهدي بن المنصور عام ٧٨٠م، وأمر بتعمير ما ضربه الزلزال سنة (١٥٨هـ /٧٧٤م)، فبنى المسجد بعناية فائقة، بأموال طائلة، وتكوّن من رواق أوسط كبير يقوم على

أعمدة رخام. وتكتنفه من كل جهة أورقة موازية له[١٥٢]، وقد عبّرت السياسة الإسلامية المتسامحة مع الأديان الأخرى، لأهل الكتاب، عن نفسها، خير تعبير في العهد العباسي، حينما كرست الرؤية الإسلامية العميقة المقدس مدينة مفتوحة للجميع لممارسة طقوسهم الدينية، والإقامة بها والحج إليها، فخصّ هارون الرشيد (ت ٨٠٩م) نصارى القدس بالتسامح، والرعاية، حتى إنه سمح لشارلمان بترميم كنائسها، وتبادل الهدايا والبعثات معه، ومنح شارلمان عهدًا بحماية الحجاج المسيحيين للقدس، وأرسل له مفاتيح كنيسة القيامة[١٥٣] ولقد واصل المأمون الخليفة المستنير سيرة والده هارون، وتوج اهتمامه بها بزيارتها مرتين في أواخر سنة (٢١٦هـ/ ٨٣١م) وأوائل (٢١٧هـ/ ٨٣٢م)، قادمًا من دمشق في طريقه إلى مصر[١٥٤]. واشترك قادته في إعادة بناء المسجد الأقصى، بعد تعرضه للزلزال، وأشرف على إعادة البناء، أخوه أبو إسحاق، وقام واليه عبد الله بن طاهر ببناء أعمدة الرخام.[١٥٥]

وعبّر المسلمون على أن الإسلام دين جامع، يقبل الديانات التوحيدية، وذلك باحتضانهم كل ما يرمز إلى الديانتين اليهودية والمسيحية، وبجمعهم كل ما عفى عليه الزمن من آثار هاتين الديانتين، فيذكر الحسيني "أن معظم الآثار الموسوية في بيت المقدس درس، وأضحى بحق كباقي الوشم في ظاهر اليد، إلاّ أن الإسلام حافظ على ما تبقى بعد أن عدها من آثار أنبياء الله المرسلين"، وبالتالي من آثار الإسلام نفسه. كما تم الربط بين بعض بوابات الحرم وذكريات عن أنبياء اليهود، وجعلوا مواقع عدة تذكر بالمسيح وأمه، فاعتاد المسلمون الزائرون للقدس الصلاة عند موضع "معجزة زكريا" في الركن الشمالي الشرقي من الدكة، ويوجد في أقبيتها محراب مريم ومهد المسيح، ثم يشرفون على وادي جهنم وجبل الزيتون، وهو مكان يوم الحساب. وشيّد العباسيون في القرن التاسع بعض الأضرحة والمساجد الصغيرة في الحرم، بما فيها التي أقيمت على الأماكن التي صلى فيها النبي مع جبريل، وأم فيها الأنبياء جميعًا، وشيّدوا عليه قبة المعراج[١٥٦].

١٧ـ القدس والكرامات!!

لقد جذبت تلك المنظومة الشعبية المقدسة خيال الصوفية، وبالأخص رحلة الإسراء والمعراج، التي ربطت بين عقائد التوحيد من ديانة إبراهيم الخليل حتى محمد ﷺ وأشارت بإحدى دلالاتها الرمزية على أن محمدًا خاتم الأنبياء ووريثهم، وذلك حين أمَّ الأنبياء جميعًا بجوار الصخرة على أرض الحرم، كما ربطت تلك الرحلة ما بين مكة، والمدينة، وبيت المقدس في رباط مقدس يمتد في نهايته السحيقة إلى سدرة المنتهى، فضلاً عن أنها أضفت معانيَ قدسية هائلة لأرض (المسجد الأقصى)، إذ انفتح من عليه درب الاتصال إلى السماء، فأذهل هذا المعراج/ المعجزة خيال المتصوفة لاحقًا، فباتوا يتقاطرون إلى القدس للتبارك، ولمحاولة استعادة، ولومن الدرجة الثانية، للحظة العروج تلك، جمع الوجدان الشعبي، فيما تضمّنه الإسراء والمعراج[١٥٧]، بين الرمز القديم للمكان، أو الحيز المقدس، وبين التوجه الأحدث نحو الشخصية المقدسة الصالحة، حيث أصبح بإمكان البشر والأماكن إيجاد الصلة بين ما هو سماوي وما هو دنيوي[١٥٨]، وصارت لقصة الإسراء والمعراج إيحاءاتها الأكثر تجسدًا بعد أن بنيت قبلة الصخرة في العهد الأموي، وارتفعت شاهقة في التعالي، تظلل الصخرة التي عرج من فوقها النبي ﷺ، فانجذب المتصوفة المسلمون إلى جوارها، وتحلقوا حولها. وأثر ذلك فيما بعد على تصوّرهم الشعبي للبراق، في حادثة الإسراء، فقد صاغ العامة له في أذهانهم ورسومهم الشعبية شكلاً مشابهًا للصَّنتوُرات في الميتولوجيا القديمة، تلك الكائنات الخيالية التي نصفها العلوي بشر والسفلي حيوان، وهو حصان على الأغلب.

كانت فكرة أن القرآن "كلام الله" قد أذهلت الصوفيين، فخاضوا تجربة استرجاع تلك اللحظة التي بلّغ فيها جبريل هذا الكلام للنبي ﷺ، وقد عبَّر الإمام جعفر الصادق عن هذه التجربة، حيث يُروى عنه أنه خرَّ مغشيًا عليه وهو في الصلاة، فسُئل عن ذلك، فقال: "ما زلت أردّد الآية حتى سمعتها من المتكلم بها"، ويعلق الإمام الغزالي على تجربة الصادق "فالصوفي لما لاح له نور خاصيته التوحيد، وألقى عند سمعه عند سماع الوعد والوعيد، وقلبه بالتخلص عما سوى الله تعالى، صار بين يدي الله حاضرًا شهيدًا، يرى لسانه لسان غيره في التلاوة".[١٥٩]

١٨ـ آثار بيت المقدس بين التاريخ والأسطورة

وقد يحسن بنا الوقوف مع الكم الهائل من الأساطير التي ساقها الموروث الشعبي في كتابات المؤرخين والرحالة عن القدس. فنلاحظ أنها لم تتكون دفعة واحدة؛ إنما استمر كل جيل يضيف إليها من خياله ما يوائم تصورات عهده، وما يزيد من تأثيرها في أذهان محبيها، لذلك فإن الروايات والأفكار التي راجت وتكونت عن مدينة (القدس أو بيت المقدس)، قد تباينت فيما بين الكتابات التاريخية، ووفقا للزمان والأحداث أحيانًا، في تناول للأساطير جملة واحدة دون تفاصيل محددة متتابعة، فكأنهم بدأوا بالنهاية فاختلط الأول بالأخر دون اعتبار للمراحل التطورية، التي يمكن أن تكون المدينة المقدسة قد مرت بها ودون حساب للعوامل والظروف الموضوعية التي كان محتملاً وجودها وراء كل خطوة انتقالية.

كما لم تخل سيرة مدينة القدس وأخبارها من فكرة الشخصيات الحارسة والطلسمات التي كانت تلازم بناء المدينة المقدسة وعمارتها سواء قبل الطوفان أو بعده، فنجد الروحانيات والجن والشياطين وحكاياتهم المستمدة من الأساطير لها دور في الروايات الخاصة ببناء المدينة وأسوارها وعيونها ومساجدها وأبوابها القديمة تخلق نوعًا من الغموض على المستوى الزمني والمكاني للمدينة تحاول فيه مثل تلك الأخبار خلق صيغة زمنية ومكانية قد يكون لأحداث الرواية فيها نوع من المعقولية بالمعنى العادي. مثال ذلك ما رواه العديد من الرحالة والمؤرخين عن عجائب المدينة المقدسة بقولهم: "ومن العجائب التي ببيت المقدس السلسلة التي جعلها سليمان بن داود عليهما السلام معلقه من السماء إلى الأرض شرقي الصخرة مكان قبة السلسلة الموجودة الآن وفيها يقول الشاعر

لقد مضى الوحي ومات العلا ** وارتفع الجود مع السلسلة

وكانت هذه السلسلة لا يأتيها رجلان إلا نالها المحق منهما ومَنْ كان مبطلا ارتفعت عنه فلم ينلها وملخص حكايتها مع اختلاف فيه أن رجلاً يهوديًا كان قد استودعه رجل مائة دينار فلما طلب الرجل وديعته جحد ذلك اليهودي فترافعا إلى ذلك المقام عند السلسلة فأخذ اليهودي بمكره ودهائه فسبك تلك الدنانير وحفر جوف عصاه وجعلها فيها فلما أتى ذلك المقام دفع العصا إلى صاحب الدنانير وقبض على السلسلة ثم حلف بالله لقد أعطاه دنانيره ثم دفع إليه صاحب الدنانير العصا وأقبل حتى أخذ السلسلة فحلف إنه لم يأخذها منه ومس كلاهما السلسلة فعجب الناس من ذلك فارتفعت السلسلة من ذلك اليوم لخبث الطويات وحكي غير ذلك وجعل سليمان عليه السلام تحت الأرض بركة وجعل فيها ماء وجعل عل وجه ذلك الماء بساطًا ومجلس رجل جليل أو قاض جليل فمن كان على الباطل إذا وقع في ذلك الماء غرق ومن كان على الحق لم يغرق.

ومن العجائب التي كانت أيضًا في بيت المقدس في الزمان الأول ما حكاه صاحب مثير الغرام أن الضحاك بن قيس صنع به العجائب الأولى إنه صنع به في ذلك الزمان نارًا عظيمة اللهب فمن عصى الله في تلك الليلة أحرقته تلك النار حين ينظر إليها والثانية من رمى بيت المقدس بنشابة رجعت النشابة إليه والثالثة وضع كلبًا من خشب عل باب بيت المقدس فمن كان عنده شيء من السحر إذا مر بذلك الكلب نبح عليه فإذا نبح عليه نسى ما عنده من السحر والرابعة وضع بابًا فمن دخل منه إذا كان ظالمًا من اليهود ضغطه ذلك الباب حتى يعترف بظلمه والخامسة وضع عصا في محراب بيت المقدس فلم يقدر أحد يمس تلك العصا إلا من كان من ولد الأنبياء ومن كان سوى ذلك أحرقت يده والسادس كانوا يحبسون أولاد الملوك عندهم في محراب بيت المقدس فمن كان من أهل المملكة إذا أصبح أصابوا يده مطلية بالدهن وكان ولد هارون يجيئون إلى الصخرة ويسمونها الهيكل بالعبرانية وكانت تنزل عليهم عين زيت من السماء فتدور في القناديل فتملأها من غير أن تمس وكانت تنزل نار من السماء فتدور عل مثال سبع على جبل طور زيتا ثم تمتد حتى تدخل من باب الرحم ثم تصير عل الصخرة فيول ولد هارون تبارك الرحمن لا إله إلا هو فغفلوا ذات ليلة عن الوقت الذي كانت تنزل النار فيه فنزلت وليس هم حضورًا ثم ارتفعت النار فجاؤا فقال الكبير للصغير يا أخي قد كتبت الخطيئة أي شيء ينجينا من بني إسرائيل أن تتركنا هذا البيت الليلة بلا نور ولا سراج ؟ فقال الصغير للكبير تعالى حتى نأخذ من نار الدنيا فنسرج القناديل لئلا يبقى هذا البيت في هذه الليلة نور ولا سراج فأخذ من نار الدنيا واسراجًا فنزلت عليهما النار في ذلك الوقت فأحرقت نار السماء نار الدنيا وأحرقت ولدي هارون فناح نبي ذلك الزمان فقال يا رب أحرقت ولدي هارون وقد علمت مكانهما فأوح الله تعال إليه هكذا افعل بأوليائي إذا عصوني فكيف افعل بأعدائي"[١٦٠] ويعلق الرحالة ناصر خسرو على عجائب قبة السلسلة بقوله :"وبعد قبة الصخرة قبة تسمى "قبة السلسلة" وهي السلسلة التي علقها داود عليه السلام والتي لا تصل إليها إلا يد صاحب الحق، أما يد الظالم والغاصب فلا تبلغها، وهذا المعنى مشهور عند العلماء".[١٦١]

ما يهمنا في تلك الروايات هو انشغال الوجدان الشعبي بقصص الأنبياء التي لم تشبع حاجات هذا الوجدان الروحية، فراح يضيف من تصوراته وموروثاته إلى تلك القصص التي حفظتها لنا كتابات الرحالة والمؤرخين، خاصة في سياق حديثهم عن كل ما يتعلق بالنبي سليمان عليه السلام إذ سيظل اللقاء الأسطوري بينه وبين ملكة سبأ واحدًا من أكثر اللقاءات إثارة للخيال وحتى لكاتب التاريخ فإن هذا الخيال يشكل لا محالة عنصرًا أساسيًا من عناصر اللقاء، يصعب إن لم يكن مستحيلاً إقصاءه أو تبريره على حد سواء. وما دام هذا اللقاء قد جرى في ظروف أسطورية مفرغة من أية ممانعات واقعية يمكن أن تكبح خيال المتلقي، أو أن تفرض عليه شروط قراءة خاصة، فقد ظلت القصة محتفظة بسحر لا يقاوم، ومفتوحة باستمرار لضروب شتى من التأويل وألقت بظلالها على كثير من الحوادث التاريخية الأخرى التي ارتبطت في الذهنية الشعبية بالنبي سليمان وما يرتبط به من آثار ومدن شارك في بنائها وبخاصة قصة بناء مدينة بيت المقدس وما بها من عجائب وآثار ومحاريب. وفي كل تلك الآثار السليمانية تكفل الإخباريون الإسلاميون وغيرهم بوضع تفاصيل مدهشة عن تلك الآثار ذات الطابع الغرائبي المفعمة بالسحر . وطور الإخباريون اليهود في عصر الإسلام ورددها من بعدهم الإخباريون من المسلمين سلسلة من القصص والمرويات عن تلك المدن أو الآثار المرتبطة بالنبي سليمان بما أضفى عليها في النهاية، هذا القدر من الخيالية.

كما أن حقل الأساطير العربية الذي ظل باستمرار حقلاً مفتوحًا أمام تقبل المروّيات والأحاديث والقصص من دون السؤال عن مصدرها؛ أتاح حتى لرجال دين ثانويين وإخباريين هامشيين أن يكونوا في عداد بُناة أرضية ميثولوجية عربية ذات طابع ديني، مُتقبلة، ومُروَّج لها على نطاق واسع .في كتابات المؤرخين والرحالة ولعلنا نتلمس أثرًا لهذا في سياق حديث العديد من الرحالة عن عصا الأنبياء والتي قال أشار إليها الموروث الشعبي في سياق حديثه عن عجائب بيت المقدس بقوله: "وضع عصا في محراب بيت المقدس فلم يقدر أحد يمس تلك العصا إلا من كان من ولد الأنبياء".[١٦٢]

ربما تذكرنا كلمة (عصا) هنا بالمعجزات الموسوية العديدة التي ينسبها رواة التراث لموسي عليه السلام والتي نجد إشارات لها في القرآن الكريم أو مدونات التوراة،، وهي من عادات التراث الشعبي. كعصا موسى التي أبطلت سحر سحرة الفراعنة مجتمعين وقضيت عليه تمامًا وجاء في المثل الشعبي "اضرب عصاتك واجري وراها "والعصا التي تسير لا ريب عصا سحرية وهى فكرة شائعة في الآداب الشعبية بل إن للعصا أحيانًا منفعة سحرية ومن بين اللغات البدائية التي جمعت بين صفات الكتابة وصفات الزخارف المتكررة عصا المراسلة التي كانت منتشرة في جهات كثيرة من العالم، وظلت قائمة إلى عهد قريب في السويد والنرويج، وكانت الرسائل المراد تسجيلها على العصا تكتب على شكل حروف وجمل على شكل خطوط متقاطعة أو متعرجة تحفر على ساق

العصا نفسها كأنها نقشات زخرفية، وفي غالبية الأمر لم يكن لحامل الرسالة من جهة أخرى أي دراية بمضمونها غير أن عصا الرسائل أو المراسلات اتخذت أيضًا في بعض الأحيان صبغة سحرية.[١٦٣]

وهي تذكرنا بعصا الساحر التي من شأنها أن تحقق المعجزات كعصا موسى. التي أفترش الحديث عنها مصنفات السحر الشعبي كقول صاحب شمس المعارف الكبرى تحت فصل بعنوان (فصل أذكر فيه الأسماء التي كانت على عصا موسى عليه السلام) وبها كان يفعل الغرائب إذا كتبها في شرف الشمس أو شرف المشترى بماء المرسين وماء أبحيق النهري وماء كزبرة البئر وماء الحلاف وماء الورد البصير والزعفران الشعر في رق غزال ويبخر وقت الكتابة برائحة أريجة وتجوف العصاة وتجعل الأسماء فيها وتختم عليها بشمع فرح بنت بكر فإن كنت في مكان مخيف وظهر عليك اللصوص وقطاع الطرق أو ظهر عليك شيء من الوحوش الضارية المؤذية فاضرب بالعصا الأرض (٣) مرات وقل اللهم إني أسألك ببركة هذه الأسماء العظيمة التي كانت على عصا موسى بن عمران عليه السلام وضرب بها البحر فانفلق وكان كل فرد كالطود العظيم أن تحبس عنَّا ما هو كذا أو تذكر ما تريد من توقيف رجال وتوقيف سباع وتقول في أثناء كلامك وقفوهم إنهم مسئولون فإنهم يقفون بإذن الله تعالي".[١٦٤]

كما نجد كيف أختلق "الوجدان الشعبي" العديد من التفاصيل فيما يتعلق بكرامات ومعجزات عصا موسي عليه السلام التي ورد ذكرها في القرآن الكريم حيث أورد لنا أخبارًا ترسم ملامح ومعجزات وكرامات لا حصر لها تختلف قليلا فيما بين المؤرخين والرحالة والتي جاءت في سياق الموروث الشعبي الذي جمعه لنا هؤلاء المؤرخين. وتكشف لنا عن جوانب أُخري للقراءة الشعبية لسِّير الأنبياء حيث يتفاعل فيها الواقع بالحلم والأسطورة، وتجسد لنا رد الفعل التخيلي للجماعة الشعبية لطبيعة معجزات الأنبياء وأخبارهم. وهو ما نلاحظه في محاولة العديد من الرحالة والمرخين في تلمس أخبار تلك العصا التي شغلت حيزًا لابأس به في الميثولوجيا الإسلامية فيقول الرحالة المدجن عبد الله بن الصباح (في القرن الثامن الهجري) في سياق وصفه للحرم المقدسي: "ومحراب مريم بنت عمران مع نخلتها، ومحراب قبة موسى قيل فيه عصاه والتوراة مدفونة والألواح التي جاء بها موسى من عند الله نزلت عليه بجبل الطور".[١٦٥]

أما فيما يتعلق برواية الموروث الشعبي عن السلسلة التي ببيت المقدس فهي تؤكد أن الموروث الشعبي في ذلك الزمان كان على معرفة ويقين من أنه ليس هناك اختلاف بين اثنين أن المال والتجارة عنوان للشخصية اليهودية بل للوجود اليهودي، في كل مكان من العالم، حتى أصبحت مفردات التجارة، والصيرفة، والربا، لصيقة بالفرد اليهودي وبسلوكه الملتوي . ومن أجل المال والتجارة يمارس الدهاء والمكر والاحتيال، تحت أسماء الشطارة والذكاء وحسن التصرف واستغلال الفرص. ولعل رواية السلسلة تفصح عن دلالات ارتباط اليهودي بالذهب[١٦٦] واستعداد اليهودي أن يفعل أي شيء في سبيل الحصول على الذهب بطرق مشروعة أو غير مشروعة.[١٦٧]

كما نجد في الرواية أنها رسالة من الموروث الشعبي في المنطقة بأن المال من دنانير الذهب الأصفر لا وطن له، وهو رفيق دائم لمن يحمله .واليهودي حريص على حمله معه ولوفي عصاه، فهو يشتري ويبيع ويقرض بربا فاحش، ويقدم المساعدات للحكام والولاة والقادة لتمويل حروبهم وبالتالي أصبح المال الذهبي أساس التجارة وعصب الاقتصاد في العصور القديمة والوسطى، وبالتالي ألغى (المال) حدود المكان والزمان، كما لا تخل الرواية على أن اليهود وأهل الذمة في القدس وجدوا الوسائل العادلة التي تحمي حقوقهم في حال اختصامهم مع الآخر وهوما وجده اليهودي من وسيلة عادلة حين اختصمه صاحب الدنانير أوفي سياق الحديث عن باب اليهود الذي يمنع الظلم .وربما كانت رسالة تحذير من الموروث الشعبي للاحتراز في التعامل مع اليهود بشكل أو بآخر!!!.

١٩ـ أسطورية أنوار بيت المقدس!!

كما نجد في الرواية إلى أي مدي كان للزيت أهمية في بيت المقدس فضلاً عن أن تقديس الزيت مازال معتقدًا لدى بعض الطوائف إلى اليوم. وقطرات الزيت كمصدرين للنور .وقد حرص الخيال الشعبي على تأمين احتياجات بيت المقدس من الزيت فأخرج من خيالاته العديد من المرويات التي نسبها إلى الرسول صلى الله عليه وسلم وكبار الصحابة التي تحتاج إلى التيقن من صحتها فيقول صاحب مثير الغرام تحت بابا(فضل إسراج بيت المقدس وعمارته وأن الإسراج للعاجز عن التحمل إليه يقوم مقام الزيارته): "عن أنس رفعه: من أسرج في بيت المقدس سراجًا لم تزل الملائكة تستغفر له ما دام ذلك السراج فيه "ويشير في موضع آخر نقلاً عن سلسلة رواة عن الرسول ﷺ قال "مَنْ لم يأت ببيت المقدس فيصلي فيه فليبعث بزيتٍ يسرج فيه".[١٦٨] لاسيما أن الإخباريين قد تكفلوا بوضع عناصر أسطورية حول قيمة زيت بيت المقدس وقدرته على الشفاء من الأمراض نلحظ ذلك في القرن الثامن الهجري في سياق حديث الرحالة المدجن عن الحرم القدسي الشريف بقوله: "وفيه اثنان وسبعون شجرة من اشجار الزيتون يعصرونها وزيتها يشفي بها المرضى" ثم يعضد من مصداقية حديثه عن بركة زيت الحرم القدسي بقوله: "وكفى أن به سبعة عشر محرابًا صلى فيها الأنبياء كلهم".[١٦٩]

وبدت القدس في زمن نشأتها مدينة متلألئة كمدن حكايات ألف ليلة وليلة إذ نجدها مدينة تؤدي فيها الجواهر والمعادن النفيسة ذات الخواص السحرية دورًا لا بأس به في إضاءة المدينة المقدسة فيقول الدينوري في كتابه الأخبار الطوال :"وكان داود عليه السلام ابتدأ بناء مسجد بيت المقدس، فتوفي قبل استتمامه، فاستتمه سليمان، وأتم بناء مدينة إيليا، وقد كان أبوه ابتدأها قبله، فبنى مسجدها بناء لم ير الناس مثله، وكان يضيء في ظلمة الليل الحندس إضاءة السراج الزاهر، لكثرة ما كان جعل فيه من الجواهر والذهب، وجعل اليوم الذي فرغ فيه منه عيدًا في كل سنة، فلم يكن في الأرض عيد أبهى ولا أعظم خطرًا منه، ولا أحسن منظرًا؛ فلم يزل المسجد على ما بناه سليمان حتى غزا بخت نصر بيت المقدس، فأخربها، ونقض المسجد،

وأخذ ما كان فيه من الذهب والفضة والجوهر، فنقله إلى العراق".[١٧٠]

ولا يمكن أن نخطئ الروابط بين هذا الحطام الرمزي في المعتقدات الشعبية وبين الحاجة إلى النور كضرورة لاستمرار الحياة، واتخاذ ما يرمز إليه وسيلة لبلوغ الأرب، دعت الإنسان إلى إشعال الشموع في مزارات القديسين والأولياء وفي أعياد الميلاد، وإلى وضع قناني الزيت في الأضرحة . والزيت هو مادة النور، وذكر في القرآن لمقاربة التشبيه بالنور الإلهي" يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْلَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ نُورٌ عَلَى نُورٍ يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَنْ يَشَاءُ"/النور.

على جانب آخر؛ نجد أن القدس أضفت على تاريخها خصوصية شديدة عند ارتباط نشأتها بكائنات غيبية وظروف غامضة، فالجن يبني ويعمر، والسحر والطلسم يحمي ويقهر وبنيان الأسوار والأبواب يهر والراجح أن حكايات السحر والطلسمات والكائنات الغيبية هذه شأنها شأن أخبار الخوارق والمعجزات تعكس قدرًا كبيرًا من الانبهار والإعجاب الممزوجين بالنقص الحاد في المعلومات التاريخية، ولا غرابة في أن تحظى مدينة القدس بهذا القدر الكبير من اهتمام المورث الشعبي فقد كانت محط رحل الأنبياء الذين شكلوا البوتقة النورانية التي تلتقي عندها كافة أشكال الموروث الشعبي . من هنا أضفى الموروث الشعبي على مدينة بيت المقدس أبعادًا أسطورية حين تخطي حدود العالم المحسوس ليصل إلى طلاسمها وتماثيلها العجائبية التي تتداخل مع العالم غير المرئي والتي يحتمل اقتباس بنيتها من تراث أقدم وتدل على ما أحاط بمدينة القدس من أخبار وأساطير وأوصاف ينعكس بعضها على ما ورد في مدن ألف ليلة البحرية الواقعة في المحيط وغيره.. من أمثلة ذلك ما تناقله الرحالة والمؤرخون حول ما يسمى (بطلسم الحيات) بالقدس فيقول الموروث الشعبي الذي نقله لنا العديد من الرحالة والمؤرخين: "قال الحافظ بن عساكر قرأت في كتاب قديم فيه وفي بيت المقدس حيات عظيمة قاتلة إلا أن الله تعال قد تفضل عل عباده بمسجد عل ظهر الطريق أخذه عمر بن الخطاب رضي الله عنه من كنيسة هناك تعرف بقمامة وفيه اسطوانتان كبيرتان من حجارة عل رأسهما صور حيات يقال إنها طلسم لها فمت لسعت إنسانًا حية في بيت المقدس لم تضره شيئًا وأن خرج عن بيت المقدس شبرًا من الأرض مات في الحال ودواؤه من ذلك أن يقيم في بيت المقدس ثلاثمائة وستين يومًا فإن خرج منه وقد بقي من العدة يوم واحد هلك وذكر الهروي أيضًا نحو هذا في كتاب الزيارات له قال صاحب مثير الغرام رحمه الله وقد اخبرني الفقيه شمس الدين محمد بن علي بن عقبة وهو عدل فاضل ثقة أن ذلك اتفق لشخص سماه هو وأنسيت اسمه كان يلعب بالحيات فلدغته حية فخرج من المقدس فمات وهذا يؤيد ما ذكراه قلت وهذا المسجد معروف وهو بحارة النصارى بالقدس الشريف بجوار كنيسة القمامة من جهة الغرب عن يمينه السالك من درج القمامة الخانقاه الصلاحية والذي يظهر أن طلسم الحيات بطل منه والله أعلم ولما انتهت عمارة مسجد بيت المقدس شرع سليمان في بناء دار مملكته بالقدس الشريف واجتهد في عمارتها وتشييدها وفرغ منها في مدة ثلاث عشرة سنة وانتهت عمارتها في السنة الرابعة والعشرين من ملكه".[١٧١] وفي موضع آخر يقول صاحب الأنس الجليل: "أن الضحاك بن قيس .. وضع كلبًا من خشب عل باب بيت المقدس فمن كان عنده شيء من السحر إذا مر بذلك الكلب نبح عليه فإذا نبح عليه نسى ما عنده من السحر".[١٧٢]

وتعكس الروايات السابقة إلى أي مدى انشغلت الذهنية الشعبية في القدس بفكرة الأرصاد والطلاسم والإحراز التي تقي من الأرواح الشريرة وغيرها، يعرف المعجم الوسيط الطلسم بأنه خطوط وأعداد يزعم كاتبها انه يربط بها روحانيات الكواكب العلوية لطبائع السفلية لجلب أو دفع أذى وهو لفظ يوناني لنعت كل ما هو غامض ومبهم كالألغاز والأحاجي وحسب ابن خلدون فإنه إذا كان السحر هو اتحاد روح بروح، ولا يحتاج الساحر فيه إلى معين فإن الطلسمات يحتاج فيها الساحر إلى معين فيستعين بروحانيات الكواكب وأسرار الأعداد وخواص الموجودات وأوضاع الفلك المؤثرة في عالم العناصر ولذلك فإن الطلسمات اتحاد روح بجسم أي ربط للطبائع السماوية (التي هي روحانيات الكواكب بالطبائع السفلية.ويعني ذلك أن الطلاسم (أو الطلسمات) ليست شيئًا آخر سوى الجداول (بالتعبير المغربي الدارج الذي ينطق الكلمة بجيم ساكنة مع تشديدها) أن صناعة الجداول تخصص لا يتقنه سوى نخبة الفقهاء السحرة الذين اكتسبوا معرفة دقيقة بأكثر «علوم السحر» تعقيدا ولأجل ذلك يطلبون مقابل عملهم تعويضات من الزبائن تكون قيمتها المالية كبيرة.واهم العناصر التي صنع منها الجداول هي: حروف غير مفهومة مثل السبع خواتم، (معروفة بخاتم سليمان) حروف أبجدية، أرقام، أسماء هجرية، أسماء عناصر، أسماء الشياطين وملوك الجن والملائكة، أسماء الله الحسنى، سور من القرآن، أشكال هندسية مختلفة.

وتسمى الجداول كذلك في لغة السحرة «خواتم» أو حسب شكلها الهندسي مربع مخمس وهي من التنوع والغرابة بشكل يرعب العامة أو على الأقل احترامها للعمل السحري ومن مطالعتنا لبعض كتب السحر التي تحفل بالكثير من النماذج نستخلص ان الجدول الواحد يصلح لقضاء أكثر من غرض واحد وطريقة الاستعمال وحدها تحدد النتيجة التي حصل عليها المستفيد من العملية ونظرا لأن تلك الرسوم التخطيطية الغامضة تبدو متضمنة لخاصية سحرية (كل ما هو غامض هو سحري) فإن مؤلفي مصنفات السحر الشعبي الأساسية بالغوا في حشو بعض الجداول بكل ما هو غريب وغامض من الرموز بيد أن أكثر إشكال الجداول خطورة (من وجهة نظر المعتقدات السحرية) وإثارة لرعب العامة هي تلك المسماة «الجدولية»، والجدولية هي رقعة ورق وضعت عليها كتابات سحرية يتم إعدادها غالبا بدافع الغيرة وبغاية الانتقام الأسود من غريم أو عدو وهذه العملية السحرية تستدعي القوى الخفية على رجل أو امرأة من قبل فقيه ساحر يتعاهد من جني لإشراكه في العملية بحيث يصبح الجني حارسا للجدول السحري وضامنا لاستمرار مفعوله طالما بقي المستهدف بالعمل السحري حيا، ويمكن تلخيص العملية فيما يلي:

"بعد أن يعد الساحر الجدولية» يقيم عهدًا مكتوبًا مع جني بأن يحرسها ثم يقوم بدفن كل من الجدولية والعهد المكتوب في الروضة المنسية بإتباع طقس معقد جدا والروضة المنسية في فهم المغاربة هي المقبرة المهجورة التي كفت منذ أمد بعيد عن استقبال موتى جدد وانمحت الكتابات من شواهد قبورها".

إن الأثر السحري الذي يترتب عن هذا العمل المرعب يتحدد في جعل المستهدف منه يصبح غائبا عن محيطه وبتعبير المختصين في صرع الجن فإن ضحية الجدولية تصبح «ملبوسة من طرف الجن» وهي اخطر أنواع الإصابات التي يلحقها الجن بالبشر وربما نجد في الأمر بعض التشابه مع المضمون الغرائبي لحكايات ألف ليلة وليلة التي أثرت بعمق في المتخيل الشعبي العربي وتركت بصمات واضحة المعالم في مأثوراتنا الشعبية وعلى الخصوص منها حكايات الجن الذي يظل مسجونا في قمقم أو حارسًا يحمي كنزا لعدة قرون، وفي زعم السحرة ان الجني الذي يحرس الجدولية يصبح متقمصا (لابسا) للضحية حتى لا تستطيع أية قوة سحرية أخرى إبطال مفعوله وفي محكمة الجن الكبرى في بويا عمر يحدث ان ينهار الحارس للجدولية أثناء حصص «الصريع» فيفيد هيئة المحكمة الغيبية بمصدر الشر الذي يحرسه واسم صاحب الجدول السحري والفقيه الذي صنعه وفي بعض الأحيان حتى المكان الذي دفن فيه الجدول والعهد، ولا يقتصر استعمال الجداول على الأغراض الملحقة للأذى بالغير فقط، بل يستعمل لأغراض نافعة أيضا، ومنها علاج لسعات الحيوانات السامة، والكلاب المصاب بالسعار، ولأجل ذلك ينقع الورق الذي كتبت عليه عبارات سحرية سرية في ماء، ثم يقدم شرابا للمريض، كما تعلق بعض الجداول الأخرى بغاية علاج أمراض خطيرة، كحمى المستنقعات وأمراض القلب، وآلام الأعصاب والعقم، وغيرها.

ولعل الحديث عن طلسم الكلب وطلسم الحيات في بيت المقدس يدل على أنه لم تكن تلك الأفكار المرتبطة بسحرية الصور والزخارف غريبة عن الأفكار التي سادت المنطقة آنذاك إذ نقرأ في أساطيرنا وقصصنا الشعبي عن الثياب والستور المسحورة المطلسمة التي نسجت عليها زخارف ونقوش من شأنها إكساب لابسها بعض المميزات الخارقة إذ نجد فقرة في سيرة فيروز شاه (وهي إحدى القصص الشعبية المسلسلة الذائع انتشارها): "ثم أخذته إلى صندوق من الحديد ففتحته وأخرجت منه ثوبًا مزركشًا بالفضة وقفطانًا منقوشًا بالنقوش الرفيعة وبطلاسم لا يحسن قراءتها إلا كل ساحر، ومصور عليه من الصور أشكال كصور والنسر والغراب والباشق وكبار الطيور، والأسد والفيل والكلب وكبار الحيوانات والزواحف، وصور مردة من الجان وشياطين وغير ذلك، مما يبهج النظر ويخيف القلب، فقال لها: لم هذه الثياب ؟ قالت: إذا لبسها الإنسان يأمن كل سحر، ولا تصيبه عين، فهي منيعة ولابسها يأمن كل غائلة وهذه أعجب ما صنعت".[١٧٣]

وفي الحياة الشعبية نرى رواسب ومتبقيات من هذه المعتقدات لا تزال قائمة وتتردد كثيرًا في مصنفات السحر الشعبي بأساليب وطقوس متنوعة، فتصنع من رسوم الحيوان طلاسم لتحقيق أعراض مثل صيد السمك، أو نفي العقرب، أو الحدأة، إلى غير ذلك، وهم يقصدون ساعة معينة طالعًا بذاته عند عمل هذه الطلاسم، فعلى زعمهم أن ذلك يجعل الأثر قوي وفي الحكايات الشعبية ظهرت النصب المطلسمة التي تعقد عندها الرياح العاتية، ومن ذلك ما جاء في حكاية ذي القرنين، حين عبر بجيشه بحر الظلمات وما ذكر عن النصب الذي أقامه فرعون مصر، فأباد جميع اليهود الذين حاولوا العودة بعد طردهم، حيث صعقهم الصنم المحصن بالأسماء المطلسمة.[١٧٤]

أما الثعبان أو الحيَّة التي طالما ظهرت مع طلسمات الموروث الشعبي لحماية القدس وغيرها من مدن الشرق الأدنى القديم فهي دون سائر الحيوانات الأخرى لها تاريخ طويل تحفه الأساطير من جوانبه كافة. وتكاد لا تخلوا أمة من أساطير دارت حولها وخلاصة ما قيل عنها؛ أنها تمتلك العشْب ذا القوة السحرية، كما نظر إليها كجن أو شيطان له قوة خارقة تلحق الأذى أو الجنون في كل من يحاول إيذائها، وارتبطت حياة الناس بالحية ارتباطًا وثيقًا لانتمائها إلى عالم آخر، ويفوق طاقة الإنسان.[١٧٥] كما أن الأفعى أو الحيَّة لعبت دورًا هامًا في الموروث الشعبي حيث قامت بدور الحارسة أو الحامية للإنسان كما تقوم بمطاردة من يمثلون الدنس في الجماعة، ولذا لا نعجب حين نجد في بعض أسوارنا وأبوابنا التاريخية، حتى في العهد الإسلامي، نجد منقوشًا عليها ذلك الرصد السحري لإرهاب العدو ومنع دخوله: باب الحيات، باب الأسود ..إلخ.

والثابت تاريخيًا أن الكنعانيين قد عبدوا (الحية) أي الثعبان، وقد بدا ذلك واضحًا في اكتشاف العديد من التماثيل المجسدة للحية أو الثعبان في منطقة (تل بيت مرسم) بجنوب هضبة الخليل والتي تعود للفترة الواقعة ما بين (٢٠٠٠ - ١٦٠٠سنة قبل الميلاد) كما ظهرت أشكال الثعابين في تلك الفترة على العديد من الأدوات والأواني الخاصة بالكنعانيين، كما نقشوها على أختامهم (الجعارين) التي عثر عليها في مدينة (تل العجول) جنوب مدينة غزة. وأخذت (الحية) مكانها الفاعل في الوجدان الشعبي الفلسطيني وتفكيره على الرغم من الشقة الزمنية الهائلة فأطلق عليها عدة تسميات مثل (الحية، الزعرة، الرقطاء، العربيد ..إلخ) ودارت حولها العديد من الحكايات الشعبية الفلسطينية وظلت (الحية) ماثلة في الذاكرة الشعبية الفلسطينية لتواجدها وانتشارها في الوسط البيئي وبأنواعها العديدة في الصحراء الفلسطينية بالنقب، وبداخل الكهوف الجبلية وبين نباتاته البرية بداخل حقوله تمثل الرعب لما تتميز به من قدرة على اللدغ والاختفاء بسرعة فائقة ودون أن يراها أحد أو يسمع مجرد صوت لها فيسجلون هذا الموقف المرعب بقولهم :"زي الحية بيقرص وبيلبد"، "دوا الحية العصية"، "مطرح العقرب لا تقرب ومطرح الهام افرش ونام " تأكيدًا على عدم إيذائه ما دام الإنسان نائمًا لا يفكر في الاعتداء عليه في حين قد تلسع العقرب في كل الحالات . وقد تجد البعض من الفلسطينيين يستثمر رأس الأفعى في العديد من الحجب والتعاويذ حيث يتمتمون

ويعزمون عليه بعد قطعه قائلين :"ثور يا ثار بن بكر" ليضعوه في قطعة من القماش (كحجاب) للمرأة التي تحلم بأن أحد يريد ضربها أو التي لا تحمل أو تأخر حملها كما يضعون فيها (حرز) يوضع فوق رأس من يشكو الصداع.

ومن الوصفات الشعبية الفلسطينية التي يتم استخدام الحية فيها نجد الشعبيين يضعون رأس الحية أو الأفعى مع تكاكة العلب بالإضافة لسبع خيوط حريرية مختلفة الألوان وسبع إبر طرش(طباعة) وسبع إبر خرس(للخياطة) ووضعهم جميعًا في قطعة قماش كحجاب يوضع داخل المخدة .وهناك من يأكل نصف الأفعى (الحية) كوصفة شعبية للرجل الذي لا ينجب.[١٧٦] وبرغم ذلك يؤكد الوجدان الشعبي الفلسطيني على أن: "عمر الحية ما بتصير خية" ولعل معاناة الشعب الفلسطيني من ويلات موجات الاستعمار التي تعرض لها جعلته يعبر عن ذلك بقوله: "إن كان الحية بتنحط في العب عمر العدو ما بيصير محب".[١٧٧]

٢٠ـ القدس وخلاسم الأبواب!!

والقدس بحكم تاريخها وموقعها، كانت خبرتها طويلة؛ لأنها خبرة تاريخ وحضارة وتنوع سكاني وديني، وبالتالي كان لهذا كله دور كبير، وفعال في تشكيل، وتلوين الموروث الشعبي المقدسي في تعامله مع غير الإنسان من آثار عمرانية أو طير أو حيوان أو نبات أو جماد، نرى رؤيته الخاصة التي تجعل منها عوالم أسطورية تتعانق بحميمية مع حقائق التاريخ، فما من بناء في القدس العتيقة إلا وتُروَي حوله الحكايات، في بعضها عناصر حقيقية من التاريخ، ومعظمها نسجته المخيلة الشعبية الثرية، وهذا شأن المكان الذي تتراكم فيه طبقات التاريخ، فالأسطورة بقيت في الضمير الجمعي، وعبرت عن نفسها في مفردات التراث العمراني المقدسي الثري، الذي لا يستطيع تفسير الكثير من ظاهراته الحاضرة إلا من خلال دراسة عملية التطور التي مر بها ورؤية الناس له إذ هو المسرح الكبير الذي تجلت فوقه خصائصهم وخصالهم بشكل غير عادي فهو يكشف عن الناس - في العصور الإسلامية - في أفضل أحوالهم وأسوئها في آن واحد.

كان أول مفردة في منظومة التراث العمراني المقدسي هي الأبواب إذ كان معلمًا قديمًا قَدَم مدن هذا الجزء من العالم، وما برح الرحالة والمؤرخون من الإشارة إلى أبواب بيت المقدس. ولتتبلور لدينا الدلالة الحضارية للأبواب بما يعنيه من أمن وأمان من ناحية كما أنه في الوقت نفسه يعكس دلائل ضعف وخوف من الجماعات الخارجية التي تنظر بعين الحسد، وتتحين أي فرصة لضعف المدينة للانقضاض عليها، إضافة لشعور أهلها بأنهم لم يعودوا قادرين علي إيقاف الهجوم الذي يهدد بلادهم ، وهذا ما نلمسه في طيات حكايات الموروث الشعبي الدائر حول الطلاسم والأرصاد السحرية بأسوار وأبواب المدينة ومنها أيضًا باب التوبة الأسطوري الذي تحدث عنه الرحالة والمؤرخون بقولهم:" أنه بآخر المسجد من جهة الشرق مما يلي محراب داود مكان معقود به محراب وقد عرف هذا المكان بسوق المعرفة ولا اعرف سبب تسميته بذلك والظاهر انه من اختراعات الخدام لترغيب من يرد إليهم من الزوار ونقل بعض المؤرخين أن باب التوبة كان في هذا المكان وان بني إسرائيل كانوا إذا أذنب احدهم ذنبا أصبح مكتوبا على باب داره فيأتي إلى هذا المكان ويتضرع ويتوب إلى الله ولا يبرح إلى أن يغفر الله له وأمارة الغفران أن يمحي ذلك المكتوب عن باب داره وان لم يمح لم يقدر أن يتقرب من أحد ولوكان اقرب الناس إليه"[١٧٨] ويضيف القزويني عن سليمان عليه السلام أنه كان قد: "بنى في بيت المقدس بيتًا وأحكمه وصقله فإذا دخله الورع والفاجر كان خيال الورع في الحائط أبيض وخيال الفاجر أسود."[١٧٩] واختلق الوجدان الشعبي الأحاديث والتفسيرات والتأويلات لآيات القرآن الكريم لتأكيد قيمة القدس الروحية والعجائبية والمعنوية فيما يتعلق بأسوار مدينة القدس وتحضر هذه المعاني، عند تأويلهم لبعض الآيات القرآنية، كتفسيرهم للآية ﴿واستمع يوم ينادي المناد من مكان قريب﴾ (ق:٤١) بأن المنادي هو إسرافيل، "ينادي من بيت المقدس بالحشر، وهو(أي بيت المقدس) وسط الأرض"[١٨٠]. وعن عبد الله بن عمر (ت ٦٥ هـ، ٦٨٤م) قال: "إن السور الذي ذكره الله في القرآن: ﴿فضرب بينهم بسور له باب باطنه فيه الرحمة وظاهره من قبله العذاب﴾ (الحديد: ١٣) هو سور بيت المقدس الشرقي، باطنه الرحمة، أي المسجد، وظاهره قبله العذاب: وادي جهنم".[١٨١]

٢١ـ أسطورية جبل بيت المقدس

جذبت جبال القدس إلى زيارتها الكثير من الصحابة والتابعين، والعباد، للتعبد فيها، والتبرك في مشاهدها، وبعضهم فضل الإقامة فيها، وأحيانًا حبذوا الموت والدفن في أطرافها، لاعتقادهم بأنها أرض المحشر والمنشر ولقد استثمر الوجدان الشعبي ملكة الابتكار، وأطلق لخياله العنان كي يبرز مدى التبجيل والتقديس الذي أحاط بجبل زيتا ببيت المقدس، وقد كان الدافع الروحي هو المحرك لخيال الضمير الشعبي الابتكاري فيما يخص (جبل زيتا أو طور زيتا)؛ "إذ كان رفع المسيح من طور زيتا - جبل شرقي بيت المقدس"[١٨٢]، أضف لذلك شيوع العديد من الأخبار عن معجزات وكرامات تنسب إلى عدد من المدفونين بسفحه، إذ إن في سفحه عددًا لا بأس به من قبور الأولياء والصالحين والصحابة والتابعين والأنبياء ،وفيه دفن جماعة من شهداء المسلمين في الفتحين العمري والصلاحي وفيه دفنت (رابعة العدوية) المشهورة بين المقدسيين بأم الخير وكانت أشجار الزيتون تغطيه في سالف الأزمان إلا أن الجراد وبني آدم قد أتوا على هذه الأشجار[١٨٣] فضلاً عن مزارات يؤمها الناس من المسيحيين والمسلمين مع أهل بيت المقدس ككنيسة الصعود مما سمح للخيال أن يشكل تاريخ هذا الجبل كما يشاء له، ويقيم بناءه الفني كما يحلوله، مبالغًا في محاولته الوصول إلى قلب المتلقي والتأثير فيه. خاصة وأن جبل زيتا لم يكن مجرد جبل يلفه الصمت والمهابة، وإنما كان مسرحا للنشاط اليومي للناس بفضل المأثورات الدينية الشعبية وارتباطه بقصص الأنبياء. يقول صاحب مثير الغرام نقلاً عن سلسلة رواة :"عن خالد بن معدان، قال: حاج جبل بيت المقدس إلى ربه تبارك وتعالى فقال :أي رب خلقتني جبلاً فذّا ذا كدي، وخلقت الأرض من غيري وفجرت فيها

الأنهار، وأنبت فيها الأشجار، وأخرجت منها الثمار فأوحى الله تعالى إليه :يا جبل بيت المقدس، وهل تدري ما مثلي ومثلك، مثل رجل ابتنى قصرًا، ثم ابتنى في ذلك القصر دارًا، وجعل فيها أهله وماله، عيني عليك بالطل والمطر لا أنساك حتى أنسى عيني، ولا أنساك حتى تنسى ذو رحم ما فيرحمها".[١٨٤]

عجائبية وقداسة جبل زيتا تكشف لنا عن مدى تجذر الديني وأيضًا الغيبي في الوعي وأُطُر حياتنا وانعكاس ذلك كله على النصوص في شكل يقين وحقائق لدرجة أن الاقتراب منها أحيانًا يعد من المحاذير الكبرى .فالقصة التي افترشت كتابات الرحالة والمؤرخين وأصحاب الفضائل عن عجائبية جبل زيتا يبدو أنها تأثرت بتلك المفاهيم التي سادت العالم حول أسطورية الجبال، وكذلك ربما تأثرت من معطيات عبادة العرب للأصنام التي كانوا يزعمون بشأنها: "أن الشياطين تدخل فيها وتخاطبهم منها وتخبرهم ببعض المغيبات".[١٨٥] وإيمانهم بحلول هذه القوى الخفية في كل ما حولهم من مظاهر الطبيعة، ولعل بعض الجبال كان لها النصيب الأوفر من ذلك، حتى غدت ذات أثر في حياة الإنسان، وحسبنا معرفة أن الجبال عدت من الأمكنة الأسطورية في ملحمة "جلجامش" كجبل "الأرز" بوصفه موطن الآلهة، وكان جلجامش وأنكيدو يقدمان له قربانا، طالبين أن يواتيهما الجبل بحلم مطمئن كما جاء في نص الملحمة: وأمام الإله شماس (أي الشمس) حفر بئرًا.. وصعد جلجامش إلى الجبل[١٨٦] ..وقدم وجهته إلى البئر.. وقال أيها الجبل أرسل حلمًا.[١٨٧]

٢٢ـ القدس وسر الخرزة الكنعانية المفقودة!!

أما الأخبار المتوارثة عن الملوك الأسطوريين الذين حكموا بيت المقدس الذين أضفت عليهم الميثولوجيا الإسلامية كل ما يلزم من العناصر المنشطة للخيالية في التلقي، لم يكونوا مجرد شخصيات أدبية نسج صورها خيال المؤلفين الشعبيين، بل كانوا أشخاصًا واقعيين تدعم واقعيتهم بعض الشهادات التي لا يرقى إليها الشك كالنصوص الدينية وبعض النقوش التي عثر عليها المنقبون وعلماء الآثار فضلاً عن الأخبار المتوارثة عن بعض الشخصيات الدينية مثل النبي سليمان وداود عليهما السلام والتي تكشف لنا أخبارهم عن مفهوم الدين لدى الناس وكيف أنه لا ينفصل عن السحر وتكشف لنا عن جانبًا مهمًا عن نفسية الناس ويطلعنا على مشكلات كلية تتلخص في نظرة الإنسان إلى الكون الذي يعيش فيه وأن هذا الوجود الكلي يتمثل منذ أقدم العصور حتى الآن في قوى مرئية وأخرى خفية.

ويتمظهر ذلك في العديد من الروايات التي لعبت فيها القوى الغير مرئية دورًا فاعلاً في الواقع والوقائع وربما تمظهر ذلك عند العديد من الرحالة مثل الرحالة اليهودي بنيامين التطيلي (القرن السادس الهجري) في سياق حديثه عن جبل صهيون وأسطوريته ربما خدمة للطرح اليهودي المتعلق بنشأة المدينة فيقول :"وحدث قبل خمس عشرة سنة أن تداعى جدار البيعة التي على جبل صهيون . فأمر البطريرك بعض أتباعه من الرهبان بإعادة رمّه وأوصاهم بأن يأخذوا الحجارة من أسوار صهيون الشرقية ...وحدث أن عاملين تربط بينهما صداقة وثيقة.. وهما يشتغلان منفردين، اقتلعا حجارة وجدا تحتها فجوة تؤدي إلى غار عميق. فقال أحدهما للآخر: "هلم نر ما في هذا الكهف عسانا نعثر على كنز". ولما وجدا نفسيهما وسط قاعة كبرى محكمة، معقود سقفها على أساطين من رخام موشاة بفضة وذهب .وفي القاعة خوان عليه صولجان وتاج من خالص الذهب . يتوسط القاعة قر داود ملك إسرائيل عليه السلام وإلى يساره قبر ولده سليمان وقبور سائر الملوك من آل داود . ووجدوا كذلك صناديق مقفلة لم يعرفا مضمونها . وبعد أن مضى برهة وجيزة على ولوجهما القاعة، هبت ريح صرصر عاتية طوحت بهما إلى الأرض، فبقيا بلا حراك حتى وقت الغروب، وعندها هتف بهما صوت آدمي يقول :"إنهضا وبارحا هذا المكان !!" .. وهرول الرجلان نحو ظاهر الكهف فأسرعا إلى البطريرك يقصان عليه ما شاهداه وما سمعاه، فاستدعى البطريرك إليه الربن إبراهيم القسطنطيني الناسك ..وقص عليه الحادث فأيد الرن كون هذا الكهف مرقد الملوك من آل داود .أما العاملان فإنهما لازما فراش المرض من هول ما شاهداه.."[١٨٨].

ما يهمنا في تلك الرواية هو مدى تأثرها الواضح بالسير الشعبية العربية التي كانت رائجة في المجتمع العربي بل إن مراجعة كتب الرحالة الجغرافيين العرب والمؤرخين والمفسرين ومقارنتها بالسير الشعبية تؤكد حقيقة التأثير والتأثر هذه بجلاء ووضوح .كما أن هناك محفزات شجعت القاص الشعبي في مدينة بيت المقدس على أن ينسج هذا النسيج الأسطوري المتعلق بقبر سليمان ووجوده في أحد جبال بيت المقدس. ومن ذلك ما روي عن النبي سليمان وعن كنوزه، وعن تسلطه على عالم الجن وقد استغل القاص الشعبي ذلك الاستغلال في ملاحمه وسيره الشعبية أبدع استغلال حين جعل سيفًا بن ذي يزن في سيرته الشعبية يبحث عن كنوز الملك سليمان، وجعل عاصفة تطلب بدلة بلقيس مهرًا لزوجها من عيروض. بل جعل الرهق الأسود من الجن الذين عصوا النبي سليمان، ثم إن سيف آصف بن برخيا الذي كان الملك سيف يقطع به رقاب الإنس والجن، ويختبر به المؤمن الصادق والمسلم المنافق، كان ملكًا لأحد وزراء النبي سليمان.

كما أن في سيرة ملك اليمن سيف بن ذي يزن نجد أنه قد حملت الجن الملك سيفًا إلى مكان كنوز النبي سليمان، وفي أثناء التجوال وجد سيف نفسه فوق جبل شاهق، فسأل سيف الجني أرميش وقال: لكن يا أخي من يحكم على هذا المكان، فقال: يحكم عليه استاذك، وهو الخضر عليه السلام. فقال له يا سيدي فرجني على بعض هذه الأماكن، فقال له مرحبًا بك. ووضع يده ومشيا سبع خطوات ووقف، فهبت عليهما روائح زكية، ونظر الملك سيف فرأى قصورًا عالية وفيها قناديل معلقة، وهي قناديل من الجوهر تضئ آناء الليل وأطراف النهار، ولم يكن فيها دهان ولا دخان ولا نار، فلما نظر الملك سيف تعجب وقال لا إله إلا الله إبراهيم خليل الله، سبحانه خلق الخلق وأحصاها وبسط الأرض ودحاها ..ثم إن الملك سيفًا التفت إلى ذلك الرجل وقال له يا سيدي وأنتم كيف تصلون إلى هذه الأماكن وأنتم في مساكن بعيدة عنها، بأي شيء تعرفون الأوقات حتى تصلّوا فيها؟ فقال:

اعلم يا ملك أن في هذا الجبل ملكًا من عند الله إذا جاء الوقت وقف على رأس الجبل ينادي الله أكبر"[١٨٩] وتستمر أحداث السيرة حتى حصل الملك سيف على مبتغاه واستولى على كنوز سليمان وفيها بدلة بلقيس التي كانت قد أوصت بأن تكون البدلة للملك اليماني بعد أن تفتح له الكنوز بابها فور نطقه بحسبه ونسبه.. وكان من جملة أفعاله أنه سأل جميع الجان الموكلين بالكنوز عن الذخائر فأعجبته ذخيرة واحدة وهي في كنز (كوش بن كنعان)، وهي خرزة ذات أوجه سبعة، وكل وجه عليه اسم خادمه ..وكل من يملكها تطيعه الخدام ويطيعه أهل الأقاليم ..." وبعد عدة تطورات تُسرق تلك الخرزة بمعرفة الجابية ابنة الملك جبرون وتهرب بها إلي بيت المقدس خوفًا من سطوة أبيها، حيث ذاع صيتها في معرفة الغيبيات وجاء الأمير الفتى (مصر) إليها ليسأل عن خرزته المحبوبة والمفقودة فسلمتها له بعد أن أحبته وأرادت أن تتزوجه، فوافق مصر ووعدها أن يتزوج بها فور طلاقها من أخيه"[١٩٠] فهل آن الأوان لتعود الخرزة الكنعانية المقدسية لأحضان مصر والعروبة كما كانت!.

٢٣ـ عجائب أشجار ونباتات القدس

وتخطى البُعد العجائبي للقدس في مخيلة الرحالة والمؤرخين ليصل إلى عالم النباتات العجيبة والأشجار الغريبة الأطوار. ذات القوى السحرية والتي تُعَدّ من أبرز (التيمات) التي انتشرت في العديد من الأساطير والحكايات الشعبية وغيرها من أنواع القصص الشعبي، التي جمعها لنا الرحالة والمؤرخون عن أشجار القدس التي تحتوي على قدرات غرائبية فيشير صاحب مثير الغرام إلى عجائب شجر بيت المقدس فيقول: "عن حماد بن زيد عن عطاء بن السائب أن سليمان بن داود عليهما السلام سجد في بيت المقدس سجدة ورفع رأسه وحوله نبات وكل شجرة تقول: أنا شجرة كذا وكذا، تدعوه تقول: أنا شفاء من كذا وكذا، حتى قالت واحدة :أنا الخروب أخرب بيت المقدس".[١٩١]

ويضيف الطبري في تاريخه قائلاً:" عن مرة الهمداني عن ابن مسعود وعن ناس من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم قال كان سليمان يتجرد في بيت المقدس السنة والسنتين والشهر والشهرين وأقل من ذلك وأكثر يدخل طعامه وشرابه فأدخله في المرة التي مات فيها فكان بدء ذلك أنه لم يكن يوم يصبح فيه إلا نبتت في بيت المقدس شجرة فيأتيها فيسألها ما اسمك فتقول الشجرة اسمي كذا وكذا فيقول لها لأي شيء نبت فتقول نبت لكذا وكذا . فيأمر بها فتقطع فإن كانت نبتت لغرس غرسها وإن كانت نبتت دواء قالت نبت دواء لكذا وكذا فيجعلها لذلك حتى نبتت شجرة يقال لها الخروبة فسألها ما اسمك قالت أنا الخروبة قال لأي شيء نبت قالت نبت لخراب هذا المسجد قال سليمان ما كان الله ليخربه وأنا حي أنت التي على وجهك هلاكي وخراب بيت المقدس فنزعها وغرسها في (حائط) له ثم دخل المحراب فقام يصلي متكئا على عصاه فمات"[١٩٢] كما يحدثنا صاحب الأنس الجليل عن شجرة يقدسها الناس ببيت المقدس ويزورونها ويتبركون بها فيقول: "وبطور زيتا شجرة خرنوب عندها مسجد لطيف وتحت المسجد مغارة مأنوسة ويقصد الناس هذا المكان للزيارة وتسمى هذه الشجرة خزنوبة العشرة ولا أدري ما السبب في تسميتها بذلك ولكن اشتهر هذا الاسم عند الناس والله أعلم بحقيقة الحال"**[١٩٣]

كما تحدث الموروث الشعبي عن شجر باب الرحمة فيقول صاحب مثير الغرام إلى زيارة القدس والشام: "لما فرغ سليمان عليه السلام من بناء بيت المقدس أنبت الله له شجرتين عند باب الرحمة؛ إحداهما تنبت الذهب والأخرى تنبت الفضة فكان في كل يوم ينزع من كل واحدة مائتي رطل ذهبًا وفضة.. ففرش المسجد بلاطه ذهبًا وبلاطة فضة، فلما جاء بخت نصر خربه واحتمل معه ثمانين عجلة ذهبًا وفضة وطرحه برومية"[١٩٤] على هذا النحو بنى سليمان مدينة القدس وفرشها بالذهب والفضة والمعادن النفيسة ليتجلى لنا إلى أي مدي يأخذ الوجدان الشعبي في إيجاد حلول عاجلة للمشكلات التي اعترضت مراحل بناء وتجهيز المدينة المقدسة. فالانتقال المتخيّل الذي قام به الضمير الشعبي إلى عالم الأشجار والنباتات العجائبي بعيدًا عن عالمه الواقعي، ربما ليطرح في هذا العالم رؤاه وآلامه وأحلامه التي لم تتحقّق في دنيا الواقع.

خرج الضمير الشعبي بتطلعاته الخياليّة بعيدًا عن أرضه بحثًا عن الحياة المثالية التي يئس من وجودها عليها، فبرزت لديه الدعوة إلى القيم المثالية التي يمكنه تحقيق الخلاص للبشر ممّا ألمّ بهم من مفاسد وظلم. ولا يزال الوجدان الشعبي واحدًا من أهم الأصوات الداعية للقيم الإنسانية الفاضلة فهو سبيل الرقي وسلم المعالي. ويتمظهر ذلك بوضوح أكثر في سياق حديث الرحالة والمؤرخون عن عجائب إحدى الصخور التي عثر عليها أحد الرواة فيقول شهاب الدين المقدسي في سماعياته الواردة في كتابه مثير الغرام نقلاً عن سلسلة رواة: "..سمعت ذا النون يقول وجدت صخرة ببيت المقدس عليها أسطر مُحيت لمن ترجمها، فإذا عليها مكتوب كل عاص مستوحش، وكل مطيع مستأنس، وكل خائف هارب، وكل راجٍ طالب، وكل قانع غني، وكل محب ذليل".[١٩٥]

٢٤ـ الملائكة في القدس!!

ولم يكن عجيبًا أن تتردد عن القدس الأساطير والحكايات الشعبية في كتابات الرحالة والمؤرخين ولكن أقرب الأشياء إلى العجب؛ هو إيمان الكثير من الرحالة والمؤرخين بحقيقة تلك الحكايات والأساطير، بل والدفاع عنها، فالعجب ليس منصرفًا إلى إثباتهم هذه الأساطير عن مصادرهم، وانصرافهم إلى ما جُبِلَ عليه الرحالة والمؤرخون من التصديق لأكثرها بل والتدليل على صحتها، وإن كان فيها ما يمجه العقل، ويأباه الذوق، ومن ذلك قول الرحالة عبد الغني النابلسي (الذي زار القدس في العصر العثماني) مدللاً على صحة ما ورد في رحلته إلى القدس من وجود ملائكة رآها في ضريح موسى الكليم عليه السلام والذي يقع شرق بيت المقدس فيقول: "عزمنا على زيارة نبي الله موسى بن عمران فسرنا بعد طلوع الشمس بساعتين .... بعد قطعنا كل فج عميق وكان دخل وقت الظهر وفات. وكادت أن تدرك

المشاة وفات، من شدة الدغر والوعر. فأشرفنا من ذلك الشاهق العالي، ووجدنا ذلك النور المتلالي وأقبلنا على ذلك الكثيب الأحمر، وقد بنى حوله بالجص والحجر الأغبر، ثم لم نزل نازلين وفي سيرنا مسرعين .إلى أن وصلنا إلى ذلك الحرم الأمين.. ثم قمنا إلى جهة المزار العظيم .والقبر الذي أشرقت عليه أنوار الكليم، فدخلنا إلى قبالة القبر الشريف وقرأنا الفاتحة في ذلك المقام المنيف. وإذ بالخيالات تلمع في داخل تلك القبة بحيث تتحير فيها عيون الأحبة. وهناك من الحضور ما يشهد أنها خيالات الملائكة تصعد وتنزل من حضرة الملكوت على هاتيك التربة المباركة وقد ذكر الشيخ يوسف بن محمود بن أبي اللطف المقدسي في رسالته.. ما ملخصه أنه وجد الناس من أهل العلم وغيرها يبحثون في ذلك على ثلاثة أشياء الأول عن هذا القبر المشهور الذي لموسى (عليه السلام) .. شرقي بيت المقدس على ذلك الكثيب الأحمر وما يظهر في القبة المبنية عليه من داخلها من الخيالات الصاعدة والنازلة على صور مختلفة... وأهل بيت المقدس يقصدونه في كل سنة عقب الشتاء ويقيمون عنده أيامًا وقد ظهر في هذا المكان أشياء من أنواع المعجزات منها اشتعال الأحجار إذا أوقدها الإنسان فإنها تشتعل كما يشتعل الحطب اليابس.."[١٩٦] وتظهر أنوار الملائكة كذلك عند الرحالة النابلسي في سياق حديثه عن قبة الصخرة فيشير إلى ذلك بقوله: "فصلينا ركعتين في تلك المغارة المباركة التي لا تزال مهبطًا لأنوار الملايكة".[١٩٧]

وهكذا؛ حاول النابلسي، أن يلح على توكيد هذا الخبر بما فيه من الأساطير والخرافة - المدرك نكارتها لدى مطالعتها - موهما صحته، استنادًا إلى أقوال السابقين، معتقدًا أن العلم والفهم ينفيان الارتياب فيه، بل فيهما الدليل على تصديقه، بيد أننا يجب ألا نغفل حقيقة أن بعض الروايات التي يعدها البعض مجرد حكايات أسطورية قديمة لا يقبلها عقل أو نقل، يعتبرها آخرون من موقع فهمهم الديني وموقعهم الزمني حقيقة تاريخية لا جدال فيها،، ويتلمس موظفوها كل سبيل تربطهم بما يحبه الناس وينقادون له من حكم وأمثال وأحاديث ومراجع علمية دينية في محاولة من جانب الرحالة والمؤرخين تقديم رؤية متماسكة للأبعاد الزمنية الثلاثة : الماضي والحاضر والمستقبل، وتحتل الخرافة والأساطير مكان الصدارة من هذه المفاتيح الثلاثة. ولقد استثمر الوجدان الشعبي ملكة الابتكار، وأطلق لخياله العنان كي يبرز مدى التبجيل والتقديس الذي أحاط بسهول القدس، وقد كان الدافع الروحي هو المحرك لخيال الضمير الشعبي الابتكاري في القدس إذ نجد مثالاً لذلك في جعبة الرحالة الفارسي ناصر خسرو علوي في سياق حديثه عن بيت المقدس فيقول: "ورأيت قبة من الحجر المنحوت مقامة على بيت لم أر أعجب منها، حتى أن الناظر إليها لسأل نفسه كيف رفعت في مكانها ؟ ويقول العامة أنها بيت فرعون .اسم هذا الوادي (وادي جهنم) وقد سألت عمن أطلق هذا اللقب عليه فقيل أن عمر رضي الله عنه أنزل جيشه أيام خلافته في سهل الساهرة هذا، فلما رأى الوادي قال هذا وادي جهنم فإن الصدى يرتفع من هناك، وقد ذهبت فلم أسمع شيئًا" [١٩٨]ونجد ناصر خسرو(القرن الخامس الهجري)، حين يسأل عن وادي جهنم، ولا يجد إجابة كافية، يسأل ويدقق ويستنتج، وساعتها يكون أكثر دقة، وأقرب إلى الصواب؛ فإن عقله الواعي، كان طيعا في إعطائه الجواب الصحيح أو الأقرب إلى الصحة إن ترك له فرصة البحث والاستنتاج.

أما صاحب الأنس الجليل فيقول عن وادي جهنم: "وروي أن عمر (رضي الله عنه) لما فتح بيت المقدس مر بكنيسة مريم التي في الادي فصلى بها ركعتين ثم ندم لقوله (ﷺ) هذا واد من أودية جهنم ثم قال وما كان اغني عمر أن يصلي في واد جهنم وعن كعب الأحبار أنه قال لا تأتوا كنيسة مريم التي ببيت المقدس - أي كنيسة الجيسمانية - والعمودين اللذين في كنيسة الطور فإنهما طواغيت ومن آتاهما حبط عمله وبالقرب من قبر مريم في الوادي المعروف بوادي جهنم بذيل جبل طور زيتا قبة من بناء الروم يسميها الناس طرطور فرعون ويرجمونها بالأحجار"[١٩٩] ويعلق المقدسي بقوله: "وحدثونا عن ابن عباس أن الساهرة هي أرض القيامة بيضاء لم يسفك عليها دم."[٢٠٠]

عجائب القدس ارتبطت كذلك بالأحلام في كتابات الرحالة والمؤرخين إذ جاءت القدس في الأحلام كجذر مشتعل يضئ التلغيز الغافي ويلغم علاقات الرائي بالحلم وبالرحلة في اشتباك التفسير مقابل التأويل وبتقابل معطيات الحلم التي صيغت بتوجيه معطيات مترسبة في الذاكرة، من جراء تفكير وتأمل وضغوطات واقعية، بحقائق الواقع وتمحيصاته، هذا الواقع الذي عالجته وعدلته وساهمت في رسم ملامحه الأحلام والاسيتهامات. وقد شكلت القدس كمكان في الرحلات أو الكتابات التاريخية التي تحدثت عنها عنصرًا قويًا لأنه الصفحة التي يتم عليها تسويد الأحداث ونموها، وبالتالي فهو في نص الحلم المتخلل في هذا السياق يحضر استراتيجيًا مولدًا، لأن بعض الأحلام الواردة في بعض الكتابات التاريخية والرحلات تستدعيها أمكنة النوم، والتي حضرت بكثرة مع ابن الرحالة المقدسي بقوله:" وسمعت أبا علي الحسن بن أبي بكر البناء يقول كان قبر يوسف دكة، يقال إنها قبر بعض الاسباط حتى جاء رجل من خراسان وذكر أنه رأى في المنام إنه ذهب إلى بيت المقدس وأعلمهم أن ذاك يوسف الصديق، قال فأمر السلطان والدي بالخروج وخرجت معه، قال فلم يزل الفعلة يحفرون حتى انتهوا إلى خشب العجلة وإذا بها قد نخرت ولم أزل أرى عند عجائزنا من تلك النحاتة يستشفين بها من الرمد"[٢٠١] المكان يؤرخ للحلم ويؤرخ له كونه مكان مقدس أو استثنائية تُجوِّز صدقية الحلم وامتداده في الصحو بعد النوم، وتحقق وعوده وإلزاماته. يتمظهر ذلك عند الرحالة ناصر خسرو في سياق حديثه عن زيت بيت المقدس فيقول: "وسمعت من ثقات أن وليًا رأى النبي عليه السلام في المنام فقال له :"ساعدنا في معاشنا يا رسول الله" فأجابه النبي عليه السلام: "على خبز الشام وزيته". والشام هنا يقصد بها بيت المقدس.[٢٠٢] وترد القدس أو بيت المقدس في الحلم ورودًا واضحًا ومتعينًا حينما يكون القصد منه التبئير، وهو أمر بلغ حدًا من

التعجب والأسطرة في الأحلام المتخللة في كتب الأخبار والرحلات بشكل خاص ثم باقي السرود العربية الأساسية بشكل غني.

٢٥ـ القدس والفردوس الموعود!!

يجئ هذا الغنى أيضًا من انفتاح العجائبي على السجلات الشعبية والمتخيل بكافة أنواعه ومراجعه التاريخية والدينية والثقافية، مما أعطى له أنوية وقنوات تنهض بتشغيل الحكي وتفعيل المتخيل، حيث ارتباطات العجائبي كثيرة إضافة إلى أنه يتغير بتغير العصور والثقافات، وتوجهات الرؤى والتحولات الممكنة في النسق والمرجع. فما يعتبر في عصر ما من باب العجيب قد تُزال عنه هذه الصفة فيفقدها في عصر موال. كما يتخذ تلوينات مغايرة مع كل مؤلف جديد حيث العجيب كذلك حسب المسافة التي تفصل بينه وبين تصور مألوف للواقع يزيد من أهميته ظهور عنصر النبوءة ليضفي على المكان قداسة ومهابة وهوما يتمظهر بوضوح في حديث الكثير من الرحالة والمؤرخين عن أحد الآبار التي لها مكانة روحية عند أهل بيت المقدس وهي (بئر الورقة) فيقول الموروث الشعبي: "بجامع النساء بئر عن يسرة الداخل من الباب الكبير يسمى بئر الورقة وقد ورد في أمر الورقة حكايات وأخبار وأحاديث كثيرة مختلفة فمن ذلك ما رواه أبوبكر بن أبي مريم عن عطية بن قيس إن رسول الله (ﷺ) قال ليدخلن الجنة رجل من أمتي يمشي على رجليه وهو حي فقدمت رفقة بيت المقدس يصلون فيه في خلافة عمر (رضي الله عنه) فانطلق رجل من بني تميم يقال له شريك ابن حيان يستقي لأصحابه فوقع دلوه في الجب فنزل ليأخذه فوجد بابا في الجب يفتح إلى الجنان فدخل من الباب إلى الجنان فمشى فيها واخذ ورقة من شجرها فجعلها خلف أذنه ثم خرج إلى الجب فارتقى فأتى صاحب بيت المقدس فأخبره بما رأى من الجنان ودخوله فيها فأرسل معه إلى الجب ونزل الجب ومعه أناس فلم يجدوا بابا ولم يصلوا إلى الجنان فكتب بذلك إلى عمر فكتب عمر يصدق حديثه في دخول رجل من هذه الأمة الجنة يمشي على قدميه وهو حي وكتب عمر أن انظروا إلى الورقة فان هي يبست وتغيرت فليس هي من الجنة فان الجنة لا يتغير منها شيء وذكر في حديثه إن الورقة لم تتغير وورد في ذلك أحاديث بغير هذا اللفظ ويقال إن الجب هو هذا الذي بالمسجد الأقصى عن يسرة الداخل للجامع"[٢٠٣] تلك القراءة الشعبية لعمران القدس جاءت زاخرة أيضًا بالحكايات الشعبية والأسطورية والنبؤات والإشارات التلميحية، وهوما يعكس بوضوح تأثير ذلك النوع من القصص التاريخي الذي كان شائعا في المجتمع العربي يومئذ على أيدي الإخباريين والرواة الذين كانوا يعقدون مجالسهم في المساجد والمحافل وساحات الإنشاد الديني، ولما كانت الرواية شفوية كان لا بد من عنصر الإثارة والتشويق لجذب انتباه السامعين، ومن الواضح أن الرحالة والمؤرخين قد اعتمدوا على جانب كبير من هذه الروايات الشفوية التي تروي تاريخ المدينة المقدسة.

ولعل عنصر اختفاء باب الجنة في بئر الورقة من شأنه أن يؤجج العجائبي المرتبط بالقدس ويعمق مساربه خالقًا نفقًا آخر في جسم النص الرحلي والتاريخي للارتباط بالشرايين الأخرى التي تبقى غير بعيدة عن أفق النسق الثقافي الذي أنتج تلك الرواية .فالاختفاء بدوره يؤسس لعوالمه انطلاقًا من استحضاره لتأكيد قدسية وعجائبية البئر اعتمادًا على السند التاريخي والديني مما يساعد على بناء مسار العجائبي وترسيم خطابه .كما يمثل عنصر الاختفاء في الرواية الشعبية تقاطعًا مع الخارق .فعجائبية القدس عموماء بهذا الحضور هو مسار استراتيجي في النص الرحلي والتاريخي والعجائبي متجذر في الثقافة العربية ومرتبط بعناصر / محفزات تستمد قوتها من التاريخ والدين لتدعيم الرؤية والخطاب.[٢٠٤] ويبدو أنّ الحديث عن بئر الورقة يتشابه كثيرًا مع حكايات الرحلات الخياليّة التي حاولت استشراف الغيب وساعدت على إرواء ظمأ النفس التوّاقة لمعرفة شيء عن مصائر البشر بعد الموت. وكذلك عن معرفة أوصاف الجنة وما ينتظر المرء الصالح من نعيم وفواكه وأشجار وعيون بشر بها القرآن الكريم.

فقام الوجدان الشعبي بتلك الرحلة الخياليّة إلى الجنة عبر آبار القدس لتعكس آمال الإنسان وطموحاته التي يريد تحقيقها وذلك بعد أن يقتحم عوامل مجهولة. ربّما تكون قد شغفته شوقًا لكشف مجاهيلها. فكانت الرحلة إلى الجنة التي شغفته حبًا وتطلعًا وسيلة لتحقيق الوعد الإلهي الخالد في القرآن الكريم، ووسيلة معرفة واستشراف للمستقبل الذي ينتظر الإنسان، وطريقًا يصل المرء من خلاله إلى فكرة أن القدس كما كانت أقرب الدروب إلى السماء في رحلة المعراج فهي أيضًا أقرب الطرق إلى الفردوس الموعود، ولكي يضفي الراوي على كلامه جوًا من الصدق المغلف بالحقيقة يعمد إلى سرد الخبر بأسماء رواة يحرص فيها على التسلسل، لغرس الإيحاء بمصداقية ما يروى وإلباسه ثوب الحقيقة على الرغم من اتجاهه الفولكلوري الواضح فيقول صاحب مثير الغرام :"روى عن ابن عباس، ومعاذ بن جبل رضي الله عنهما مرفوعًا: أقرب الأرض إلى السماء بيت المقدس باثني عشر ميلاً .. وروي عن على بن أبي طالب قال: أوسط الأرضين بيت المقدس وأرفع الأرضين كلها إلى السماء بيت المقدس بينهما أربعة عشر ميلاً.. وعن عمر: صخرة بيت المقدس أقرب بقعة إلى السماء بأربعة فراسخ.. وعن قتادة عن كعب: بيت المقدس أقرب الأرض إلى السماء بثمانية عشر ميلاً".[٢٠٥] فتأثير قصة الإسراء والمعراج واضح ولا شك في تصورات القاص أو الراوي الشعبي، وقد أتاحت قصة الإسراء فرصة للخيال الشعبي لأن يعبر من خلالها عما يساوره من أفكار إزاء العالم الآخر.

إذن فمدينة القدس كانت مسرحًا يستعرض فيه الموروث الشعبي العربي قدراته الفكريّة وملكاته الذهنية، يوجّه فيها الدعوة بضرورة الاهتمام الدفاع والذود عن المدينة العتيقة ويؤكد على قدسيتها ومكانتها الروحية. كما كانت روايات (بئر الورقة) بالقدس تصور أسطوري للوجدان الشعبي يطرح من خلاله رؤيته للجنّة وفهمه لها، وعبّر من خلالها عن موقفه من المدينة المقدسة، مستفيدًا في ذلك كلّه من قصّة الإسراء والمعراج ومن التصوّر الإسلامي للجنّة وإن كان لا

يعبّر بالضرورة عن صورة الجنّة في الإسلام، ممّا يجعل صورة الجنّة في الكتابات العربية هي تصوّر الوجدان الشعبي لها.

وهو ما نلاحظه من أحاديث الرحالة والمؤرخين عن أن مداخل الجنة ومخارجها تبدأ من القدس فيقول الموروث الشعبي معضدًا حديثه بأقوال منسوبة إلى الرسول (ﷺ): "روي أن رسول الله (ﷺ) ليلة اسري به رأى الحور العين مكان قبة السلسلة والصحن محيط بقبة الصخرة الشريفة على حكم التربيع"[٢٠٦] وفي رواية أخري أوردها صاحب مثير الغرام تقول نقلاً عن سلسلة رواة: "بينما الرسول يمشي في صحن المسجد، لقيه جبريل عليه السلام فقال: أتحب أن ترى الحور العين؟ قال: نعم: قال: فأدخله الصخرة، ثم أخرجه إلى الصفة، فخرج عليهن، فإذا نسوة جلوس، فسلم عليهن"[٢٠٧] ويتمظهر ذلك أيضًا في سياق الحديث عن:" (البلاطة السوداء) (وهي التي من داخل الباب الشامي من أبواب الصخرة ويعرف هذا الباب بباب الجنة) حكي إنه رؤي الخضر عليه السلام يصلي هناك والله أعلم ويقال إن قبر سليمان عليه السلام بهذا الباب"[٢٠٨] ما يهمنا في الروايات السابقة؛ هو أن صعوبة الوصول والإحاطة بتاريخ بعض الأماكن المقدسة في القدس وأصلها، جعلت المؤرخين والرواة والرحالة في حيرة دفعتهم إلى الهروب من المأزق، بمقولة "والله أعلم" واختلق الموروث الشعبي بعض الروايات ونسبوها إلى كبار الصحابة لإضفاء المصداقية على ما يقولونه.

ولم يكتف الوجدان الشعبي بعشرات الأحاديث التي تشير إلى وجود أنهار وورقات وأشجار الجنة فضلاً عن والحور العين ببيت المقدس بل أنه أعلنها صريحة ولسان حاله يقول: إن القدس هي جنته وأنها هي عنده القدس بغير بديل فيقول شهاب الدين المقدسي تحت باب أسماء (بيت المقدس من مدائن الجنة) عن سلسلة رواة: "قال رسول الله (ﷺ): "أربع مدائن في الدنيا من الجنة :مكة، والمدينة، وبيت المقدس، ودمشق"[٢٠٩] بل كانت القدس هي السماء بعينها في الوجدان الشعبي الذي كان تتوق نفسه إلى أن يعيش ويموت في ترابها بغير بديل ويشير إلى ذلك صاحب مثير الغرام بقوله: "عن أبي هريرة عن النبي (ﷺ): مَنْ مات في بيت المقدس فكأنما مات في السماء."[٢١٠]

ولم يعجز الخيال الشعبي عن تبرير أسباب تلك المكانة الربانية التي اختصها الله للقدس والتي اعتبرها من فضائلها، ليجد ضالته في رواية أخرى يعضد بها ما ذهب إليه من تلك المكانة الإلهية مؤداها أنه قيل: "عن عمران بن الحصين قال قلت يا رسول الله ما أحسن المدينة قال لو رأيت بيت المقدس قال: قلت أهي أحسن منها ؟ فقال كيف لا تكون أحسن منها وكل من فيها يزار ولا يزور وتهدي إليه الأرواح ولا يهدي روح بيت المقدس لغيرها إلا أن الله أكرم المدينة الشريفة وطيبها بي وأنا فيها حي وأنا فيها ميت ولولا ذلك ما هاجرت من مكة فإني ما رأيت القمر في بلاد قط إلا وهو بمكة أحسن وروي أن موسى(عليه السلام) نظر وهو ببيت المقدس إلى نور رب العزة ينزل ويصعد إلى بيت المقدس وعن كعب قال باب مفتوح من السماء من أبواب الجنة ينزل منه النور والرحمة على بيت المقدس كل صباح حتى تقوم الساعة والطل الذي على بيت المقدس شفاء من كل داء لأنه من الجنة"[٢١١] ويضيف أيضًا: "وعن ابن عباس (رضي الله عنهما) إنه قال: قال رسول الله (ﷺ) من أراد أن ينظر إلى بقعة من بقع الجنة فلينظر إلى بيت المقدس وقال كعب إن الله ينظر إلى بيت المقدس كل يوم مرتين وقال أنس بن مالك (رضي الله عنه) إن الجنة لتحن شوقًا إلى بيت المقدس وبيت المقدس من جنة الفردوس والفردوس بالسريانية البستان".[٢١٢]

٢٦ـ القدس وأسطورة العنقاء!!

واستطاع الوجدان الشعبي أن يطوي الزمان والمكان ويغير ما يشاء من أحداث التاريخ ليقدم لنا رؤية شعبية تسير في خط متواز مع القراءة التاريخية للمكان فيقول صاحب الأنس الجليل:" إن الله تعالى تكفل لمن سكن بيت المقدس بالرزق إن فاته المال ومن مات مقيمًا محتسبًا في بيت المقدس فكأنما مات في السماء ومن مات حول بيت المقدس فكأنما مات في بيت المقدس وأول أرض بارك الله فيها بيت المقدس والأرض المقدسة التي ذكرها الله في القرآن فقال: (إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا لِلْعَالَمِينَ) هي أرض بيت المقدس وكلم الله موسى في أرض بيت المقدس وتاب الله على داود وسليمان عليهما السلام في أرض بيت المقدس ورد الله على سليمان ملكه في بيت المقدس وبشر الله زكريا بيحي في بيت المقدس وسخر الله لداود الجبال والطير في بيت المقدس وكانت الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم يقربون القرابين ببيت المقدس وتتغلب يأجوج على الأرض كلها غير بيت المقدس ويهلكهم الله في أرض بيت المقدس وينظر الله كل يوم بخير إلى بيت المقدس"[٢١٣]

وحرصت الحكايات الشعبية المتعلقة بمصر في كتابات الرحالة والمؤرخين على تضمين نصوصها طيورًا خارقة ظلت حبيسة الفولكلور والحكايات الشعبية من أجل بناء عجائبيتها وإضفاء طابع المبالغة عليها والإدهاش؛ لتخرجهم من دائرة المألوف ويأتي ذلك في إطار حرص الخيال الشعبي على تأكيد قيمة معينة أو رمزية خاصة. فيلجأ إلى تصوير ذلك الشخص أو الكائن في إطار المبالغة والتضخيم لإثبات استمرار الرعاية الربانية للقدس، ويتمظهر ذلك عند الإبشيهي في سياق حديثه عن طائر العنقاء الأسطوري الذي ادعى أنه خُلق من أجل حماية القدس من الوحوش التي تحوم حول بيت المقدس فيقول: "حكى الزمخشري في ربيع الأبرار أن الله تعالى خلق في زمن موسى عليه الصلاة والسلام طيرا يقال له العنقاء له وجه كوجه الإنسان وأربعة أجنحة من كل جانب وخلق له أنثى مثله ثم أوحى الله تعالى إلى موسى إني خلقت خلقا كهيئة الطير وجعلت رزقه الوحوش والطير التي حول بيت المقدس قال فتناسلا وكثر نسلهما فلما توفي موسى عليه الصلاة والسلام انتقلت إلى نجد والعرق فلم تزل تأكل الوحوش وتخطف الصبيان إلى أن تنبأ خالد بن سنان العبسي فشكوها له فدعا عليها فانقطعت وانقطع نسلها وانقرضت"[٢١٤] ونلمح تشابهًا مع قصة العنقاء التي تحمي بيت المقدس في أحسن التقاسيم فيقول المقدسي: "أن الكلب يعدو خلف الوحش فإذا بلغ ذلك الحد (حد جبل زيتا ببيت المقدس) وقف".[٢١٥]

تلك المرويات التي اتخذت سندًا دينيًا تعكس بالضرورة أصداء اعتقاد المقدسيين والمسلمين والعرب بأن خيرات القدس كانت خيرًا إلهيًا اختصهم به الله ومنح مدينتهم شهادة الخلود التي جعلتها غير قابلة للزوال أو الاحتلال أو التجزئة أو الاحتواء حتى وأن تطاول عليها أقزام في غفلة من الزمن، كما تكشف لنا عن جانب من الأفكار العامية السَّيارة والشائعة عن القدس يومئذ، في إطار من المعتقدات والعادات والتقاليد التي سادت الخريطة الثقافية للمشرق العربي في ذلك الوقت. كما أن تلك المرويات كانت ترضي حاجة اجتماعية/ ثقافية لشرائح بعينها في المجتمع المقدسي، خاصة بعد الفتح الإسلامي للقدس، وما أيقظه من شعور في الأمم المختلفة التي غلبت على أمرها مما جعل لها تكئة لانتحال الحديث وإرجاعه للرسول(ﷺ)، وإيجاد ما يعزز صلتهم بالإسلام، وتقيم لنفسها أمام ملأ المسلمين حجة ناهضة، تدل على فضل ومكانة أمصارهم ومدنهم على بقية المدن والأمصار الأخرى.

٢٧ـ العالم الغيبي للقدس

وفي القدس يتحالف الغيبي مع الأسطورة فيحيها، ولا تعود نتاجًا ميتًا لعصور فائتة، أو سرودًا لا طائل فيه إلا الإغراب أو الإمتاع، بل تظل طاقة حية لا تكف عن توليد الاعتقاد بروحانية القدس وبقوة وسلطان من شيد تلك المدينة، فتعد شهادة متجددة لها. فمدينة كهذه كان لا بد للعناصر الأسطورية أن تجد محلاً بها في أخبار أصول تلك المدينة وأن تمتلئ سيرتها بالعديد من سمات الأسطورة الموزَّعة في شتى كتب الرحالة والمؤرخين الذين كتبوا عنها متأثرين، بروح الموروث الشعبي المثقل بحكايات الجن والعفاريت المساعدة في عمران مدن الشرق الأدنى القديم واحتفى الخيال الشعبي بتلك المدينة فجاءت رؤيته لها مثقلة بالعناصر الغيبية الأسطورية والخيالية التي لا نجدها أحيانا إلا في قصص وحكايات ألف ليلة وليلة حيث يصف الرحالة والمؤرخون وكُتاب الفضائل أسطورة بناء بيت المقدس بقولهم: "....وخبر ذلك ما روي أن الله عز وجل لما أوحى إلى سليمان "عليه السلام" أن ابن بيت المقدس جمع حكماء الإنس والجن وعفاريت الأرض وعظماء الشياطين وجعل منهم فريقًا يبنون وفريقًا يقطعون الصخور والعمد من معادن الرخام وفريقًا يغوصون في البحر فيخرجون منه الدر والمرجان وكان الدر ما هو مثل بيض النعام وبيضة الدجاج وأخذ في بناء بيت المقدس وأمر ببناء المدينة بالرخام والصفاح وجعلها اثني عشر ربضًا وأنزل كل ربض منها سبطًا من الأسباط وكانوا اثني عشر سبطًا فلما فرغ من بناء المدينة ابتدأ في بناء المسجد فلم يثبت البناء فأمر بهدمه ثم حفر الأرض حتى بلغ الماء فأسسه على الماء وألقوا فيه الحجارة فكان الماء يلفظها فدعا سليمان "عليه السلام" الحكماء الأحبار ورئيسهم آصف بن برخيا واستشارهم فقالوا إنا نرى أن نتخذ قلالاً من نحاس ثم نملأها حجارة ثم نكتب عليها الكتاب الذي في خاتمك ثم نلقي القلال في الماء وكان الكتاب الذي على الخاتم لا إله إلا الله وحده لا شريك له محمد عبده ورسوله ففعلوا فثبتت القلال فألقوا المؤن والحجارة عليها وبني حتى ارتفع بناؤه وفرق الشياطين في أنواع العمل فدأبوا في عمله وجعل فرقة منهم يقطعون معادن الياقوت والزمرد ويأتون بأنواع الجواهر وجعل الشياطين صفًا مرصوصًا من معادن الرخام إلى الحائط المسجد فإذا قطعوا من المعادن حجرًا أو اسطوانة تلقاه الأول منهم ثم الذي يليه ويلقيه بعضهم إلى بعض حتى ينتهي إلى المسجد وجعل فرقة لقطع الرخام الأبيض الذي منه ما هو مثل بياض اللبن بمعدن يقال له السامور والذي دلهم على معدن السامور عفريت من الشياطين كان في جزيرة من جزائر البحر فدلوا سليمان عليه السلام عليه فأرسل إليه بطابع من حديد وكان خاتمه يرسخ في الحديد والنحاس فيطبع إلى الجن بالنحاس وإلى الشياطين بالحديد ولا يجيبه أقصاهم إلا بذلك وكان خاتمًا نزل عليه من السماء حلقته بيضاء وطابعه كالبرق لا يستطيع أحد أن يملأ بصره منه فلما وصل الطابع إلى العفريت وجيء به قال له هل عندك من حيل أقطع بها الصخر فإني أكره صوت الحديد في مسجدنا هذا والذي أمرنا الله به من ذلك الوقار والسكينة فقال له العفريت إني لا أعلم في السماء طيرًا أشد من العقاب ولا أكثر حيلة منه وذهب يبتغي وكر عقاب فوجد وكرًا فغطى عليه بترس غليظ من حديد فجاء العقاب إلى وكره فوجد الترس فبحثه برجله ليزيحه أو ليقطعه فلم يقدر عليه فحلق في السماء ولبث يومه وليلته ثم أقبل ومعه قطع من السامور فتفرقت عليه الشياطين حتى أخذوها منه وأتوا بها إلى سليمان (عليه السلام) وكان يقطع بها الصخرة العظيمة وكان عدد من عمل معه في بناء بيت المقدس ثلاثين ألف رجل وعشرة آلاف يتراوحون عليهم قطع الخشب في كل شهر عشرة آلاف خشب وكان الذين يعملون في الحجارة سبعين ألف رجل وعدد الأمناء عليهم ثلاثمائة غير المسخرين من الجن والشياطين وعمل فيه سليمان (عليه السلام) عملاً لا يوصف وزينه بالذهب والفضة والدر والياقوت والمرجان وأنواع الجواهر في سمائه وأرضه وأبوابه وجدرانه وأركانه ما لم ير مثله وسقفه بالعود اليلنجوج وصنع له مائتي سكرة من الذهب وزن كل سكرة عشرة أرطال وأولج فيه تابوت موسى وهارون عليهما السلام".[٢١٦]

ما يهمنا في رواية تأسيس وبناء مدينة بيت المقدس السابقة أن الذهنية الشعبية متشبعة بالأساطير المتأثرة بالإسرائيليات التي تلح على دون حجة مؤكدة على إرجاع أصل كل المباني في بيت المقدس إلى سليمان عليه السلام على أن هذا لا ينتقص من أهمية الواقعة في حدودها الميثولوجية؛ ذلك أنها ارتبطت بالفعل، وعلى نحو ما بأمر إلهي وتبع ذلك بأمر ملكي من سليمان عليه السلام. كما أن الوجدان الشعبي متشبع تمامًا بفكرة المزج بين الدين والأسطورة، بل وحتى السحر، وهوما يزال متغلغلاً في حياته الاجتماعية والثقافية والسياسية. مثال ذلك أن يؤمن المرء بوجود عالمي الجن والإنس كأن يقول المرء في مجال الممارسة: "دستور يا حاضرين" لأخذ الإذن من الجن قبل صب الماء الساخن، لئلا يقع ذلك الماء فوق رأس جني فيؤذيه والتي تفعل ذلك من النساء فقد " يَلْطُشُها الجان"، وهنالك حكايات كثيرة لم نزل نسمعها عن نساء " ملطوشات"، أي مسكونات

بالجن، يتعرضن لعذاب جسدي غير مرئي . ويضاف إلى ذلك ما تزخر به حكاياتنا الشعبية من قصص الزواج بين الجن الإنس، وقد أصبحت بدائل للزواج بين الآلهة والإنس في الميثولوجيات القديمة. ونذكر في هذا المجال الحروب التي قامت بين بني سهم وبين الجن حتى صعد بنوسهم الجبال، فلم يتركوا حية ولا عقربًا ولا خنفساء إلا قتلوها، والجن يتجسدون بأشكالها، حتى استغاث ملك الجن بقريش للصلح. والعرب نسبوا للقبائل البائدة: جديس، ثمود، عاد، العمالقة، جرهم، انحدارهم من زواج بين الجن والإنس أو الملائكة والإنس، ومن هنا جاء اعتبار القبور، والأماكن الخربة، والرطبة والوسخة والمهجورة في البيوت، مواطن للجن والعفاريت، وبعض الحمامات العامة أيضًا، وكانت تحية العربي للجن: عموا ظلامًا، اتقاء لشرهم، وأصابها التعديل اليوم فصارت "مساء الخير". فحضور الجن والعفاريت والشياطين في الحكايات الشعبية المرتبطة ببناء القدس يشكل مجالاً لخلق تواصل بين طبيعتين تبدوان متناقضتين من أجل تأسيس ليقين جديد وتكسير لثبات المعلوم والمجهول.

٢٨ـ القدس وأساخير المعادن السحرية

وكما إن الميثولوجيا الإسلامية هي التي اقترحت في قراءتها للنص القرآني - من ذي قبل - أن نتقبل من دون سؤال المصدر، شخصية آصف بن برخيا كاتب سليمان، على أنه هو الجني الذي نَدَب نفسه لحمل العرش الخاص بملكة سبأ والأتيان به في طرفة عين فإن تلك الميثولوجيا هي التي اقترحت أيضًا أن نتقبل من دون سؤال المصدر شخصية آصف بن برخيا كاتب سليمان كي يكون رئيسًا للحكماء والأعوان الذين استشارهم سليمان عند بناء مدينة بيت المقدس. وقد واصلت الميثولوجيا الإسلامية دون أدنى تحفظ عملها المتقن: تزويدنا بكل ما يلزم من عناصر التلقي المصمم لأغراض تصعيد وتنشيط هذه الخيالية وبث موتيفاتها لإلباس روايتها ثوب المصداقية والخيال.[٢١٧] ففي رواية بناء بيت المقدس لعلنا نلحظ ظهور المعادن - خاصة معدن النحاس - بكثرة في أعمال بناء مدينة بيت المقدس (في سياق البحث عن حلول لترسيخ بناء أساس المدينة) في قولهم: "فدعا سليمان عليه السلام الحكماء الأحبار ورئيسهم آصف بن برخيا واستشارهم فقالوا إنا نرى أن نتخذ قلالاً من نحاس ثم نملأها حجارة ثم نكتب عليها الكتاب الذي في خاتمك" فوجود النحاس يتكرر كثيرًا فيما يتعلق بنشأة المدينة وعلاقة النحاس بعالم السحر قوية في الآداب الشعبية- ولعل هذا صدي من أصداء الاعتقاد العام حول خواص النحاس السحرية، وهو كثير الظهور في وصف الأبواب السحرية عادة والقصور والتماثيل العجائبية. فالمعروف أن الطقوس السحرية والأساطير الشعبية قد تأثرت بالنحاس والبرونز فاتخذت منها هي الأخرى مادة لتعاويذ السحر استمرت رغم انقضاء ألوف السنين تشغل حيزًا كبيرًا من فكر الوجدان الشعبي حتى يومنا هذا، حيث نرى ما تبقى منها قائمًا في صورة أسحار أو تمائم أو فوازير متداولة عند الشعبيين.

ونجد أن الصناع الذين اختصوا بتشكيل هذه المعادن، سواء أكانت نحاسًا أم حديدًا أم برونزًا، قد أحيطوا منذ القدم بأساطير رفعتهم أحيانًا إلى مرتبة الآلهة. فنجد مثلاً في المعتقدات الفينيقية القديمة إلهًا يدعى حدادًا، وهو إله الرعد. وكأنه بأصواته التي يصدرها يدق بمطرقته على السندان وهو السماء، ليصنع أدوات الحديد.[٢١٨] ويقول ابن شاهين في كتاب (الإشارات في علم العبارات): "أن ابن سرين حين سئُل عن النحاس فإنه يؤول على أوجه، فمَنْ رأى أنه أصاب نحاسًا فإنه يصيب خيرًا أو رزقًا. وقيل عند النابلسي من رآه فإنه يصيب مال من قبل اليهود والنصارى[٢١٩] وسبك النحاس اصطناع معروف لما فعله الإسكندر من سبك النحاس على سد يأجوج ومأجوج. ومَنْ رأى أنه أصاب نحاسًا غير معمول فإنه دخان وهول، وإن كان معمولاً فهو من الخدم (وأما السندان) فإنه يؤول بالقوة وربما كان مالاً على قدر ثقله. وقال جعفر الصادق: السندان يؤول على خمسة أوجه: رجل جليل القدر، ومنفعة، وقوة، وولاية، وإقبال في الأشغال.

ومن بين العقائد المرتبطة بالحديد والنحاس أيضًا اقترانهما منذ القدم بعقائد كانت تتخذ منها وسيلة لطرد الشياطين، كدقات الأجراس والآلات الموسيقية المختلفة، مثل المثلث والجنك الذي نرى إيزيس الممثلة في كثير من تماثيل دولة البطالسة في مصر ممسكة به ومتخذة منه سلاحًا لطرد الأرواح والشياطين الضارة.

وفي فنوننا الشعبية في كل من فلسطين ومصر نجد الأجراس النحاسية والحديدية مستخدمة كثيرًا في لجام وسرج بعض الدواب ولا سيما ما يجر منها العربات، حيث يمكن أن نستشف منها الغرض السحري الذي يهدف إلى طرد الأرواح أو الشياطين التي قد تؤثر على الدابة فتجعلها تتعثر في سيرها. وكانت بكل من مصر وفلسطين عادة شعبية حتى بداية القرن العشرين، ثم أخذت تتلاشى تدريجيًا وهي استعمال طاسة الخضة؛ وطاسة الخضة طاسة نحاسية كتب عليها بعض عبارات سحرية وتعاويذ بخط تتعذر قراءته في غالبية الأحيان، وفي وسط الطاسة شكل اسطواني يشبه النافورة، تتدلى منه سيقان نحاسية صغيرة تشبه السمك، وهي تحدث عند تحريك الطاسة صوتًا خافتًا. والمفروض أن يشرب المخضوض من طاسة الخضة إذا أصيب بذعر أو فزع، فطاسة الخضة – أو طاسة التربة على حد قول الشعبيين - تعتبر نوعًا آخر من الأجراس والصنوج التي من شأنها طرد الأرواح التي تصيب الإنسان أو الحيوان بالسوء، فمتى طردت هذه الأرواح زال الأثر السيئ المصاحب لها فيشفى الإنسان مما أصابه.[٢٢٠] وهوما يتشابه كثيرًا مع ما حدث في الرواية الشعبية الدائرة حول بناء مدينة بيت المقدس حيث اختفت العكوسات عن بناء المدينة بعد استخدام النحاس في البناء.

ومن بين الوسائل المتبعة في الكونغو للتنبؤ، والتي تشبه إلى حد بعيد فتح المندل في عاداتنا الشعبية، تقليد يقوم على استعانة الساحر بمرآة، يشترط في صنعها أن تكون من النحاس المصقول؛ لتظهر عليها صور الأشخاص الذين يرغب في التعرف عليهم، كمعرفة السارق أو

العدو أو ما شاكل ذلك. ويبدو في هذا التقليد أيضًا أنه يقرب من تقليد مماثل كان منتشرًا في عهد الفراعنة حيث استخدمت المرآة النحاسية في أغراض سحرية.[٢٢١] فتستخدم الشخوص النحاسية في ممارسات السحر الشعبي للاعتقاد بأنها تعمل على تقوية الباه، وتذكر إحدى الوصفات السحرية أنه في وقت حلول الزهرة درجة شرفها، يكون القمر والمريخ ممازجين لها، وتؤخذ صفيحة نحاس معتدلة السبك، وينقش عليها تمثال رجل وامرأة، ويشترط أن يكون النقش في وجود سبعة أشخاص بها فيهم النقاش، وثلاثة ذكور وأربعة إناث.[٢٢٢] ومن الشخوص النحاسية ما يعتقد أنها تقوي الباه وتصلح للعطف واستمالة النساء، نوع يصنع من النحاس الأصفر بوزن ثلاثة مثاقيل، ويصنع منه خاتم في وقت معين، ثم يركب عليه فص من حجر اللازورد الخالص، وينقش على الفص صورة امرأة جالسة مرخاة الشعر، وعن يمينها امرأة أخري تنظر إليها وفي ثيابها خضرة أو صفرة، وعليها طوق وأسورة وخلاخل. ومن عجيب ما يقال عن هذا الخاتم إن داود النبي (عليه السلام) قد صنعه، فكان عنده قوة شديدة على النساء حتى أنه تزوج مائة امرأة.[٢٢٣]

فعلاقة النحاس بعالم السحر وبناء المدن العربية قوية حتى أن مدينة بأسرها قد حشيت خوارق سميت مدينة النحاس في ليالي ألف ليلة وليلة وقد عرفت هذه المدينة العجيبة من قديم، بل عرفت بهذه الصورة نفسها التي نراها عليها في الليالي محاطة بالسور العجيب يذكر المسعودي في مروج الذهب فيقول: "وخبر مدينة الصفر(النحاس) وقبة الرصاص التي بمغاور الأندلس، ما كان من أنفسهم أنهم وصلوا إلى نعيم الدنيا والآخرة"[٢٢٤]؛ والملاحظ أن التأريخ ليس غاية ألف ليلة وليلة، ولا تقديم أنماط المجتمع وطبقاته ولا قص أخبار علومه وتطورها، ولا الحديث عن العمران والفتوحات، ولا عن الإصلاح وشؤونه، ولا بيان الظلم وألوانه، ولا التطلع إلى العدل والعلوم الجديدة، وإنما هي غاية محصورة في العبرة والاعتبار وأخذ العظة والإفادة من سلوكٍ أو تصرفٍ لشخصيةٍ.[٢٢٥]

٢٩ـ القدس وأسطورة خاتم سليمان عليه السلام

ويبدو أن فكرة خاتم سليمان الذي تكمن فيه قوى خارقة كانت سببًا في ظهور الكثير من المأثورات العربية وغيرها، حيث كان بطل هذه المأثورات (الخاتم المطلسم الذي يحقق الأماني) والتي نجد ثمة علاقة بين الخاتم وبين فكرة تحقيق الأماني في تفسير ابن سيرين بقوله: "وأما الخاتم فدال على ما يملكه ويقدر عليه فمَنْ أعطى خاتمًا أو اشتراه أو وهب له نال سلطانا أو ملك ملكا إن كان من أهله لأن ملك سليمان عليه السلام كان في خاتمه وأيضا فإنه مما تطبع به الملوك كتبها والأشراف خزائنها وقد يكون من الملك دارا يسكنها أو يملكها وفصة بابها وقد يكون امرأة يتزوجها فيملك عصمتها ويفتض خاتمها ويولج إصبع بطنه فيها ويكون فصه وجهها"[٢٢٦] ويقول الموروث الشعبي: إن سليمان سخر الكثير من الجان كعقاب لهم لخدمة بعض الأدوات كعبيد أو خدام يلبون رغبات من يملك هذه الأداة، من ذلك اللوح الذي يتحكم في الجني (عيروض) الذي يخدم سيف بن ذي يزن في سيرة سيف، وكذلك الخادم الموكل بالسوط المطلسم، والطاقية المخفية، والجراب الذي لا نفذ ما فيه، وكثيرًا ما يتردد في ألف ليلة وليلة تلك الأقسام التي وضعها سيدنا سليمان الحكيم لقهر الجني - كما يقول الموروث الشعبي - يردد هذه الأقسام الكاهن أو الساحر لإرغام الجني على الطاعة وتنفيذ الأوامر.[٢٢٧] فذلك كله حلم ومنى ليس لهما من الواقع أصل. ويمثل نوعًا من الهروب من الواقع الأليم هذا الهرب نجده سائدًا في القصص الشعبية حيث يرسم القاص البطل وقد حصل على المال بغير جهد فهو يلقاه كل صباح "تحت سجادة الصلاة" أو الوسادة، شأنه شأن البطل الذي يقطع الآماد على بساط سحري حين كان الانتقال من بلد لآخر مشقة عظيمة. أو أن يحقق الإنسان كل ما يتمنى بحصوله على خاتم سليمان وهو الخاتم الذي استطاع سليمان به أن يستخدم الجن ويسخره، فحملت له البساط، وقطعت له الأحجار، وبنت له القصور، وفجرت له الأنهار والآبار وصورت له التماثيل من خشب ونحاس ومعادن أخرى كأنها الحياض التي تروي الأرض لطولها وعرضها وبواسطة هذا الخاتم - كما يقول الموروث الشعبي - ملك سليمان البلاد.

ويقول الموروث الشعبي إن سر قوة الخاتم والعزائم المرتبطة به ليس في الخاتم، وإنما في وجود (اسم الله الأعظم) عليه. وهوما ظهر جليًا في الرواية الشعبية الخاصة ببناء بيت المقدس إذ تقول:" ....ثم نكتب عليها الكتاب الذي في خاتمك ثم نلقي القلال في الماء وكان الكتاب الذي على الخاتم لا إله إلا الله وحده لا شريك له محمد عبده ورسوله".[٢٢٨] ولهذا ظهر في المصنفات الشعبية عدة صور لخاتم سليمان (خاتم سليمان هو نجمة سداسية استخدمت على نطاق واسع في أعمال السحر المرتبط بالجان، وهناك صور من هذا الخاتم تم تقسيمه فيها إلى مثلثات أو معينات عُمرت بأرقام ترتبط بحساب الجمل أي القيمة العددية لها) ربما تكون اقرب إلى تفسير مضامين المعتقد من هذه الصور ما يقال إنها تعمل على زيادة القوة الجنسية للإنسان عند جماع زوجته، حيث يكتب في ورقة ثم تشمع، أو ينقش في رصاصة ثم يوضع تحت اللسان عند الحاجة. أو يعلق على الظهر. وحول الخاتم أدعية خاصة وله ساعة معينة وبخور خاص، كما أن له ترتيلاً يتلى بطريقة خاصة ويشتهر في هذا الباب حل المربوط أو المعقود، وهو الموضوع الذي يأخذ المكانة الكبرى في مصنفات السحر الشعبي العربي والموروثات الشعبية العربية.[٢٢٩]

٣٠ـ القدس في السير الشعبية العربية

جدير بالذكر؛ أن الأساطير والحكايات الشعبية التي صاغها الوجدان الشعبي حول أصول نشأة مدينة القدس لم تتسرب إلى كتابات الرحالة والمؤرخين فحسب، بل نجد صداها في السيَّر العربية والشعبية التي إن دلت فإنما تدل على أن وجدان الشعب قادر على طي الزمان والمكان، وفتح المغاليق الموصدة، وحل الطلسمات المجهولة في إطار من الخرافة والخوارق، التي لا تخضع لأبعاد الزمان ومقاييس المكان وطاقة البشر، ومعنى ذلك أن السيَّر العربية والشعبية أصبحت مادة خصبة لدراسة العديد من العناصر الثقافية ذات الجذور

الضاربة في القدم سواء على المستوى المعتقدي أو على مستوى الممارسة الفعلية، أو حتى على مستوى تطور "الحكاية" من ناحية الشكل الأدبي بدءا بالأسطورة ومرورًا بالملحمة والحكاية الخرافية والحكاية الشعبية ووصولاً إلى الصياغات النهائية التي اتخذتها السيَّر الشعبية، والي تعد الأسطورة من أبرز الأصول الثقافية القديمة التي تمثل مرجعية هامة للسيَّر الشعبية. ومن السيَّر الشعبية التي مثلت الأساطير المرتبطة بالمدينة المقدسة أحدى المرجعيات الثقافية لها: سيرة "سيف بن ذي يزن"؛ والتي تمتلئ بالعديد من عناصر وسمات الأسطورة موزعة في شتى مواضع السيرة، من تلك السمات البارزة في السيرة؛ هي سمة أسطورية المكان.

والمكان في سيرة (سيف بن ذي يزن) يتسم ببعد أسطوري واضح يقدمه لنا الخيال الشعبي مزجًا بين القياس على الأماكن المحسوسة المألوفة وبين التصوير الذي اصطنعه ذلك الخيال الأسطوري، ومن هنا تأتي "عجائبيتها وغرابتها ومطلقيتها" وذلك حتى لو تضمن تقديم هذه العوالم ذكر بعض المعارف الجغرافية اليسيرة؛ كأسماء البلدان والأنهار والجبال وغيرها، وعلى الرغم من أن السيرة ذكرت أسماء: القدس والحبشة، اليمن، المغرب، مصر والشام، واليونان، النيل، الفرات. إلا أن هذه الأسماء لم تدل على مواقع جغرافية واقعية، وإنما كانت دلالات الأسماء مجرد خلفية لعالم أسطوري بالفعل، ومن ذلك القدس التي وردت في السيرة في طور النشأة والتكوين في زمن يستحيل أن يكون هوزمن النشأة الفعلية للمدينة العتيقة أرضًا وشعبًا.

ولعل عودة عُجلي إلى كتابات الرحالة والمؤرخين المسلمين ورواياتهم السابقة عن أصول ونشأة المدينة المقدسة تؤكد حقيقة مؤداها أن المخيلة الشعبية - في العصور الإسلامية - لم تكن تختلف كثيرًا عن مخيلة المؤرخين والرحالة والمتعلمين أو المخيلة العلمية آنذاك.. حيث تتداخل الأساطير التعليلية والشعبية والدينية وتلتقي عند الخطوط العريضة لنشأة القدس. مما يعني أن القاص الشعبي كان على معرفة وثيقة بهذا الموروث الفولكلوري التاريخي، الجغرافي المتعلق بالقدس على نحو يسمح له بإعادة إنتاج هذا الموروث (العلمي بمفهوم ذلك الزمان). هكذا إذن؛ كان احتفاء الموروث الشعبي الذي حفظته لنا الكتابات التاريخية وكتابات الرحالة وأصحاب فضائل البلدان عظيما بالقدس العربية وآثارها التي يرجع تاريخها إلى عصور موغلة في أعماق الزمن، كما أن معظمها يحمل من الآثار المادية ما يدل على أن ثمة حضارة تليدة هي التي أفرزت مثل هذه الآثار العظيمة، بيد أن انقطاع أخبار هذه الحضارة القديمة؛ نتيجة لبعد الزمان أفسح المجال أمام الخيال لسد الثغرة الناجمة عن نقص المعلومات من ناحية، والتعبير عن الرؤية الشعبية للتاريخ الذي أنتج آثار القدس وحضارتها من ناحية أخرى.[٢٣٠]

خاتمة

لقد آن لنا أن نضع رحلنا، ونشرع بكتابة تصوراتنا، واستنتاجاتنا بعد تلك السفرة المضنية التي قمنا بها إلى أساطير مدينة القدس العربية في كتابات الرحالة والمؤرخين. مع الأخذ بأن الدراسة لا تدعي أنها قد وصلت إلى نتائج هامة، أو أحكام مقررة في الموضوع. فقد شغلت الدراسة بالبحث نفسه في أكثر الأحيان عن النظر إلى غاية أخرى غير الاستمرار فيه، على أمل أن تصل الدراسة إلى غايتين: الأولى؛ أن نقف على بعض سمات الكتابة التاريخية المتعلقة بالقدس، وروحها لدى الرحالة والمؤرخين المسلمين وأصحاب فضائل البلدان، وأنماط التفكير السائد آنذاك. وأما الغاية الثانية؛ فهي محاولة الوصول إلى تفهم نفسية هذا الشعب الذي طالما أكد ولا يزال على عروبة القدس؛ لأنها أصدق مما قد توصلنا إليه دراسات أخرى، أدق وأعمق، ومرجع ذلك ما حمله الموروث الشعبي لرؤية الناس لتاريخ المدينة المقدسة، وتفسيره لمسيرتها الحضارية، كما تشي بكل ما كان يحرك الوجدان الشعبي من قيم، أو مثل عُليا، في إطار من النظام الأخلاقي الذي حكم حركته في الزمان والمكان. ومما يعبر به الناس عن أنفسهم وعن ما يربطهم بمدينتهم المقدسة بشكل تلقائي.

وإذا كان الظهور الاعتقادي للأساطير أو لرواسبها المعرفية في الإنسان قد يؤدي إلى تراكم التخلف، فإن الظهور الواعي لها في الإبداع الأدبي والفني، وحتى الفلسفي، يمكن أن يحقق له عمقًا تاريخيًا ومعرفيًا أكبر، ويقدم له صفات جمالية آسرة وغير محدودة. ويدعم جوانبه الوظيفية والتربوية والأخلاقية والاجتماعية والقومية والإنسانية، فيبعده عن الخطاب المباشر، ويضعه على مسار حركي ما بين الواقع الصلب، والمتخيل الثَّرّ. إن انبعاث أسطورة ما، ووضعها أساسًا لمسار فكري أو سياسي يمكن أن يؤدي ذلك إلى تغيير مجرى التاريخ في منطقة ما، كانبعاث أسطورة الميعاد في فلسطين، ويمكن لمجموعة من الأساطير أن تستغل لتكون الأساس لمنظومة فكرية عنصرية توسعية، متخذة القوة والمنطق السياسي سبيلاً لتحقيق غايات معينه. وهو ما يحدث الآن في مدينة القدس التي ظلت أرض صراع دام قرنين من الزمان، من القرن الحادي عشر إلى القرن الثالث عشر الميلادي وهى الآن أرض صراع استكمل قرنًا من الزمان، ولم تظهر بعد فواتح انتهائه.

لقد اختار جماعة من كهنة اليهود من أجل تحقيق أهدافهم منذ القدم مجموعة من الشعارات والرموز المُلفّقة والمثقلة بالخيال، وجعلوا لها مسمّى دينيًا أسطوريًا؛ لأنّهم يدركون جيدًا الدور الفاعل والمؤثّر للأساطير، فعكفوا على وضع كتابهم الذي سمّوه "التوراة" ونسبوه إلى موسى (عليه السلام)، ثم عمدوا بعد ذلك إلى توظيف الخيال الشعبي في كتابهم هذا توظيفا تامًا خلال سنوات عمل طوال؛ خدمة لآمالهم المزعومة، ولقد استطاعوا بهذا الأسلوب أن ينفذوا إلى وعي أتباعهم ويدفعوهم نحو الهجرة والقتال وبذل التضحيات.

إذن فما أُنشئ كيانهم إلا تحت عناوين مشبعة بالخيال انتزعوها من وحي أساطيرهم ومدوناتهم التوراتية فأطلقوها، وزمجروا بها،

وروّجوا لها بكافة الوسائل وفي مختلف المناسبات، فهلّلوا بأساطير من مثل "أرض الميعاد" و"شعب الله المختار" و"هيكل سليمان" و"نجمة داود" و"ميراث الأنبياء" و"أرض الآباء" و"جبل الربّ" و"العرق السامي" وغيرها من أشكال متنوعة، ثم أُخْرِجت على هيئة أساطير ذات تعابير رنّانة مؤثّرة فاعلة قادرة على الوصول إلى وجدان أصحابها، تبثُّ العاطفة وتهزُّ المشاعر وتزرع الإيمان بالمبدأ والتفاني من أجله وخاصّة عند العامّة، ولقد تمكّنوا بالفعل من أن يجدوا محلّ القبول ووجه الرضا لدى أتباعهم.

فإذا كان أصحاب المدونات التوراتية قد اعتمدوا هذا السلاح ونجحوا فيه إلى حدٍّ بعيد، أفلا يكون من الأولى أن نقف نحن أمام خطواته الناجحة تلك بحيادية وبوعي، وعلى مبدأ تقدير العقل؛ لندرس حقيقة الأساطير ودورها في حياة الفرد والجماعة، ثمّ نتفحّص الأساطير والمدوّنات في تراثنا العربي القديم، ما هي وما مضامينها وما هو مصدرها ومن القائم عليها؟ فإن خلصنا إلى أنّها مصدر صادق ومعتمد من مصادر التاريخ أولياناها من الدراسة اللائقة ما تستحق، فلعلّ بها من الكنوز والأسرار ما يُعيننا على اختراق النظام المعرفي السائد اليوم والمغلَّف بسياجٍ حصين، ومن ثَمّ يفتح أمامنا المجال نحو تأسيس نظام معرفي سليم، يوصلنا إلى الحقيقة المغيّبة وسط هالات التعتيم وسحب الضباب، الذي وصل إلى حدّ تجمّد فيه الوعي وفُقدت الثقة بالذات وبالمقدرات، وإلى حدّ فشلت الأمّة في تبوء مكانتها التي تستحقّها[٢٣١]، فكانت النتيجة وبكل أسف أن انحطّت من مقامها وعجزت عن النهوض بأدوارها التي هي قادرة عليها. وإذا قمنا بذلك نكون قد رددنا أسطورتهم المشوّهة تلك بذات السلاح الذي صالوا به علينا وجالوا، ولكن بهيئته السويّة النقية أعني بأسطورة الحقيقة والصواب؟

ونحن نعرف أن الصراع القائم ليس صراعًا دينيًا حضاريًا فقط ولكنه صراع سياسي أيضًا ولكننا لا نستطيع أن نغفل عن الصبغة الدينية له وهو صراع أدت فيه الأسطورة دورًا فاعلاً ومؤثرًا. فالقدس لا يمكن أن تستحيل إلى أنها محض موقع وعاصمة، فهي ليست "برلين" يمكن أن تحل محلها "بون" في الضمير الشعبي الألماني، وهي ليست "استامبول" يمكن أن تحل محلها "أنقرة" في الضمير الشعبي التركي[٢٣٢]. ولكنها - كما يؤكد الوجدان الشعبي العربي والمسيحي والإسلامي – "القدس" بغير بديل. وهي لب الصراع القائم، وهي سطوته، ومن ملكها ملك فلسطين كلها؛ ففلسطين بغير القدس لا تكون أكثر من سيناء مصر أو جولان سوريا أو شريط حدود لبنان الجنوبي، قضية تحرير سياسي بحت. ولربما لا نكون مبالغين إذا قلنا: من ملكها أوشك أن يملك الدنيا كلها. فقد روي الموروث الشعبي: "ملك الأرض أربعة أنفس: مؤمنان وكافران فأما المؤمنان فسليمان بن داود وذو القرنين وأما الكافران فبخت نصر ونمرود"،[٢٣٣] فبيت المقدس" لم يبق ملك من ملوك الدنيا إلا قاتل عليه وطمع في امتلاكه"[٢٣٤]!!.

ولكون الخيال ميدانه طلق تختلط فيه الصور وتتوالد كما تشاء دون قيد حتى ليصعب إيجاد الفواصل أحيانًا عندما نؤصل لنشأة القدس أرضًا وشعبًا وعمرانًا فذلك الحدث في ذاته إن شئنا التأريخ له فإنه بلا أدنى شك سيصبح خارج إطار العصور التاريخية وينتمي بشدة إلى عصور الأسطورة مما يجعله يتخطى حدود الزمن وهوما نتلمسه في كتابات الرحالة والمؤرخين في سياق محاولاتهم للتأصيل لنشأة القدس وتسجيلهم لتجاربهم ومشاهداتهم الواقعية متعدين منطق العقل أحيانًا ومقتربين من الخيال الشعبي والانغماس في عالم الأساطير في وصفهم التفصيلي لآثار وعمران القدس التي قد يكون لها وجود فعلي ملموس أو آثار لا وجود لها في عالم الواقع التي كثيرًا ما كانت مرتعًا خصبًا للخيال تلعب فيه الملائكة وبعض المخلوقات الأسطورية دورًا لا بأس به.

وتنوع المكان عندهم تنوعًا كبيرًا؛ فمن الآبار والعيون التي تسكنها الروحانيات والملائكة، والأسوار المرصودة، والجبال الشاهقة، والصخور المقدسة والأحجار السحرية. إلى البرك الغامضة، والقصور المطلسمة، ومن عالم الجن والشياطين والسحرة إلى الحيوانات والطيور، والنباتات العجيبة والجواهر والمتلألئة. في إطار غرائبي أبدعه المعتقد الشعبي المقدسي، ونقله لنا المؤرخون في كتاباتهم، مستعيرين هيكل الأساطير والحكايات الشعبية، دون المضمون.

فلم يستعينوا بشكل الأساطير، والحكايات الشعبية الرائجة، آنذاك. بل اكتفوا فقط بروحها، وصبوه في شكل جيد ممزوج بالحقائق التاريخية. الممزوجة بالمعتقدات الشعبية التي تستند إلى قسط كبير من الخيال. بيد أن ما نسج حول القدس على أنه مجرد أساطير أو خرافات إنما هو تاريخ حقيقي اندثر تحت عدة طبقات من الأخبار والقصص الشفاهية لإضفاء طابع غرائبي على الأحداث، فالميثولوجيا العربية الإسلامية تتضمن التاريخ ولكن لا تقوله، ويتعين علينا باستمرار أن نستنطق هذه الميثولوجيا عبر إبداء أقصى جهد ممكن لإزاحة ما تراكم من طبقات الخيال السميكة لنعرف من نحن وإلى أين؟.

الأمر الذي يمكننا من أن نُظهر صلتها بالعقائد والطقوس التي سبقتها في الأزمنة الغابرة فنبين بهذه الكيفية تشكل الطقوس القديمة بعقلية العصر الذي انتهت إليه مما يساعدنا في تقديم قراءة مفتوحة لتلك الممارسات الشعبية ولتاريخ المدينة كلها، لاعتقادنا بأهمية الوعي بالموقف الراهن للثقافة الشعبية، وإدراك مكوناتها وعناصرها، وطرحها كوثيقة علمية تاريخية أكثر صدقا واحترامًا - أحيانًا - من الحولية والوثيقة أو البردية التاريخية التقليدية؛ إذ إنها - الوثيقة الرسمية - لم تعد تكفي لتوضح لنا وضع المجتمع، والكيفية التي رأى أصحاب ذلك المجتمع أنفسهم وأرضهم، والصورة التي يرسمونها لأنفسهم أو يضعون ذاتهم وتاريخهم داخل إطارها.

فلا يزال هذا الموروث يحتل مكانة هامة في حياتنا الشعبية، ويشكل جزءًا لا يستهان به من إطارنا الثقافي، ويرتبط بوشائج خاصة بكل من العالم الفيزيقي والعالم الغيبي، وأضحى جزءًا لا يتجزأ عن

تاريخ الوطن والمجتمع والذي هو الشوق حقًا إلى الحياة. وهو يحتاج إلى دراسات تجلو غوامضه وتزيل الصدأ، وترفع منه العوالق وتقدح فيه شرارة الوعي (بتجنب سلبياته التي فرضت علينا قيودًا من السلوك والفكر) لتعطي صورًا أكثر مصداقية عما حوته الكتابات التاريخية ذات الصبغة التقليدية الرسمية، فالفهم الدقيق للموروث الشعبي هو عصب السياق الحقيقي للتعامل معه، ومن ثم يجب أن ننظر إليه من داخل أنفسنا، ومن خلال أيديولوجية الجماعة الشعبية، بحثًا عن مصادر الإلهام فيه باعتباره إنتاجًا ثقافيًا ينطوي على الذات الحضارية.

وقصارى القول؛ قد لا يعتبر هذا البحث متكاملاً في فكرته، فربما ظهرت فيه بعض ثغرات، ولكنه يعتبر في مجموعه محاولة لإثارة الوعي أوقل (عودة الوعي) بتراثنا الحضاري المتعلق بالعاصمة الفلسطينية : القدس، وهو يصدر عن رؤية تلتمس في الماضي التفسير الشعبي لتاريخ القدس. أو ما يمكن أن نسميه بـ (البعد الثالث) للدراسات التاريخية المتعلقة بالمدينة المقدسة؛ أي التفسير النفسي والوجداني ورؤية الجماعة الإنسانية لذاتها ولمدنها وللكون والظواهر والأحداث من حولها.

وختامًا؛ فما من خاتمة فنحن لم نبدأ بعد. في دراسة وتحليل المصادر التاريخية والسرديات والمدونات العربية المتعلقة بالقدس، على الوجه الأمثل. ولم نبرز دلالات ما حملته من أخبار وحكايات شعبية وأساطير لا نزال نرفضها في البحث، ولا نعتمد عليها بالرغم أنها كانت هي التاريخ الذي يصدقه آلاف وآلاف من الناس – عامة وخاصة – والتي كانت هي التاريخ الذي عاش ولا يزال يعيش عليه الكثير ممَنْ يفوقون قراء الكتب العلمية عددًا وإيمانًا بصدق التاريخ...فلنبدأ....ربنا زدنا علمًا وتواضعًا ﴿ذَلِكَ الْفَضْلُ مِنْ اللَّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ عَلِيمًا﴾.

الهَوامِشُ:

(١) قاسم عبد قاسم: **عصر سلاطين المماليك التاريخ السياسي والاجتماعي**، القاهرة ٢٠٠٨م، ص ٢٠٢؛ مازن عوض الوعر: **التفكير اللغوي عند الجغرافيين والرحالة العرب**، مجلة التراث العربي- دمشق٢٠٠٦ العدد ١٠٤ السنة السادسة والعشرون - كانون الأول، ص٢٣.

(٢) محمد الفاسي: **الرحالة الشهير أبو عبد الله محمد العبدري**، صحيفة معهد الدراسات الإسلامية في مدريد، مجلد ٩ ، ١٠ مدريد ١٩٦٢ ، ص١.

(٣) كراتشكوفسكي: **الأدب الجغرافي عند العرب**، (ج١، ترجمة: صلاح الدين عثمان، القاهرة،١٩٦٥ م)، ص ٣٣٢.

(٤) لم يحظَ الأدب الشعبي العربي بالقيمة الفنية الاعتبارية اللائقة به على المستوى الرسمي، وظلَّ، بعد معرفته الطويلة، مهمشًا ومنبوذًا، وبعيدًا عن التناول والدرس، والبحث والتقصي لأسباب عديدة، في طالعها: عدم اهتمام أولي الأمر، الولاة والأمراء، والملوك، وأصحاب الأدب.. به لأنهم جميعًا عدّوه أدبًا للعامة، يحتفي بالصعاليك، والشذّاذ، والجواري والقينات، والمعارك الوهمية، وطقوس السحر والشعوذة، وفنون الاحتيال والمداورة، والتشاطر الكاذب (من الشطارة)، وبالحكايات التي لا تؤهلها خرافاتُها أن تدوّن وتسجل في القراطيس، ومن ثم لأن منشئي الأدب الشعبي كانوا يحتفون بالسجع، والترادف، والتوازن، والإطناب، والتطويل، والالتفات، وبصياغات بعيدة عن نهج البلاغة العربية، ومن بعد هذا كله لأن مصنفي الأدب العربي وناسخيه عدّوا الأدب الشعبي بلا قيمة أحياناً لما فيه من سلوكيات وأساليب بعيدة عن الأخلاق وتوجهاتها، وأحيانًا لأنه يدور في عوالم الخيال والإضافات كالغولة، والعفاريت، والبحور السبعة... الخ. وإضافة إلى ما سلف اقتنع مصنفو الأدب العربي أن الكثير من الأدب الشعبي أدبٌ وظيفي- شفهي، حاضنته الأساسية، بل موزعته الأساسية هي الجدات اللواتي ابتدعن الخرافات، والحكايات من أجل السمر في الليالي، وهدهدة الأطفال وتخويفهم حصرًا من الليل والعتمة. للمزيد راجع: دراسة عمرو عبد العزيز منير تحت عنوان **(الحضارة المصرية القديمة بين المعتقدات السحرية والأساطير العربية)** مكتبة النافذة، القاهرة ٢٠٠٨م، ص٨؛ الأساطير المتعلقة بمصر في كتابات المؤرخين المسلمين (دار عين)، الطبعة الأولى، القاهرة ٢٠٠٨م، ص٥.

(٥) مصطفى مراد الدباغ، **بلادنا فلسطين**، الجزء الأول، القسم الأول، بيروت ١٩٦٥، ص ٤١.

(٦) لوران غاسبار، **تاريخ فلسطين**، منشورات وزارة الدفاع السورية ١٩٦٩، دمشق، ص ٥٥؛ شمس الدين الكيلاني: **رمزية القدس الروحية، قداسة المكان** (منشورات اتحاد الكتاب العرب، دمشق٢٠٠٥م)، ص١٨.

(٧) شمس الدين الكيلاني: **رمزية القدس الروحية**، قداسة المكان، ص١٩ وما بعدها.

(٨) محمد محمد حسن شراب: **بيت المقدس والمسجد الأقصى**. دار القلم. دمشق ١٩٩٤. ص ٣٨.٤٣.

(٩) خالد عبد الرحمن العك: **تاريخ القدس العربي القديم**، مؤسسة النوري، دمشق ١٩٨٦. ص ٣٨. شمس الدين الكيلاني: **رمزية القدس الروحية**، ص٢٠ وما بعدها.

(١٠) شراب. مرجع سابق، ص٣٤؛ شمس الدين الكيلاني: مرجع سابق، ص٢٧.

(١١) مصطفى مراد الدباغ، ص ٥٦.

(١٢) فيليب حتى، **تاريخ سوريا ولبنان وفلسطين**، ج١، ترجمة جورج حداد وعبد المنعم رافق، بيروت ١٩٨٥، ص٢٢٣.

(١٣) غاسبار، ص ٣٧؛ شمس الدين الكيلاني: **رمزية القدس الروحية، قداسة المكان**، ص٢٠.

(١٤) المصدر السابق، ص٤٤.٤٨؛ شمس الدين الكيلاني: مرجع سابق، ص٢٢.

(١٥) شراب، مرجع سابق، ص٦٤.

(١٦) ياقوت الحموي. **معجم البلدان**، الجزء الأول، اختيار عبد الإله نبهان وزارة الثقافة. ص ١٦٨ - ١٧١.

(١٧) شهاب الدين أبي تميم المقدسي (ت.٧٦٥هـ): **مثير الغرام إلى زيارة القدس والشام** (تحقيق: أحمد الخطيبي، دار الجيل، بيروت)، ص٢١١.

(١٨) ناصر خسرو علوي: **سفرنامة** (ترجمة يحيى الخشاب، سلسلة الألف كتاب الثاني، العدد١٢٢)، ص٦٧.

(١٩) نبيه العاقل، **موقف سكان بلاد الشام من الفتح**. (ندوة) المؤتمر الدولي الرابع لتاريخ بلاد الشام. عمان ٩٨٧. ص ١٦٤.

(٢٠) المصدر نفسه، ص ١٥٣. وانظر: شمس الدين الكيلاني: **رمزية القدس الروحية**، قداسة المكان، ص٢٣.

(٢١) الطبري. ج١، ص ٢٠٩.

(٢٢) يُنظر للطوفان كحدث عالمي لكثرة انتشاره وإن بتفاصيل مختلفة يقترب بعضها من الحادثة الحقيقية التي حدثت كما في أساطير السومريين والبابليين، ويبتعد بعضها الآخر عن تلك التفاصيل بحيث يطغى الخيال على الحقيقة كما في أساطير الإغريق والهنود وتبدو رواية التوراة والطوفان متشابهة مع رواية الطوفان في الأساطير السومرية والبابلية. أما القرآن الكريم فقد أجمل القصة كما ذكرنا ولم يحدد مكان وزمان الطوفان ولم يحدد من كان مع نوح، ولكن أكد على حقيقة الطوفان: للمزيد انظر: محمد خليفة حسن: **الأسطورة والتاريخ في التراث الشرقي القديم**، ص ٣٧-٥٠؛ مجموعة من الباحثين: **طوفان نوح بين الحقيقة والأوهام**، (سلسلة السراة، الطبعة الأولى، البحرين، ٢٠٠٥)، ص ١٢؛ كارم محمود عزيز، **النموذج الفولكلوري للبطل في العهد القديم دراسة مقارنة**، رسالة دكتوراه – غير منشورة – المعهد العالي لحضارات الشرق الأدنى القديم، جامعة الزقازيق ١٩٩٧م، ص ٤٥-١٤٥؛ فراس السواح: **مغامرة العقل الأولى**، ص ١٥٧-٢١٠؛ محمد الحامدي: **الطوفان بين الحقيقة والأسطورة** (مجلة التراث العربي، العدد ٥٨، دمشق ١٩٩٥م)، ص٦٧.

(٢٣) قسم أوغسطين تاريخ العالم إلى عصور ستة وجعل مجرى العصور الستة مماثلة لمراحل عمر الإنسان وكانت غايته أن يوضح أن الوجود الإنساني سوف ينتهي بعودة المسيح وقيام القيامة في اليوم السابع وجاء التقسيم على النحو التالي: من آدم إلى الطوفان، من الطوفان إلى أبراهام، من أبراهام إلى داود، من داود إلى الأسر البابلي، من الأسر إلى ميلاد المسيح، العصر الحاضر: قاسم عبده قاسم: **تطور منهج البحث في الدراسات التاريخية**، ص٤٥؛ بيريل سمالي: **المؤرخون في العصور الوسطى** (ترجمة: قاسم عبده قاسم، الطبعة الثانية، دار المعارف، القاهرة ١٩٨٤م)، ص٣٩؛ آلبان ويدجري: **التاريخ وكيف يفسرونه من كنفوشيوس إلى تونبي**، (ترجمة: عبد العزيز جاويد، سلسلة الألف كتاب الثاني، العدد ٢٢١، القاهرة ١٩٩٦م)، ص١٨٣.

(٢٤) فراس السواح: **مغامرة العقل الأولى دراسة في الأسطورة السورية وبلاد الرافدين**، الطبعة العاشرة، دار علاء الدين، دمشق ١٩٩٣م، ص١٥٧.

(٢٥) أحمد عثمان: **تاريخ اليهود** (الجزء الأول، مكتبة الشروق، القاهرة ١٩٩٤م)، ص٥.

(٢٦) ذكرت قصة نوح في عدة سور بشيء من التفصيل في الأعراف وهود والمؤمنون والشعراء والقمر وسورة نوح، وتختلف الآيات بالألفاظ بحسب ما تكون الغاية من إيراد الآيات والمراد من معناها. وروت التوراة في سفر التكوين في الإصحاح السادس والسابع والثامن قصة الطوفان، فأسهبت في سرد الأحداث، وبينت الأسباب والنتائج، ورواية التوراة فيها عناصر مشابهة للعناصر الموجودة في أساطير بلاد ما بين النهرين، وتختلف عنها في جوانب أخرى، وقد أثرت هذه الرواية في كافة أتباع الأديان الثلاثة: الموسوية والمسيحية، والإسلام

(٢٧) **السامية**: نسبة إلى سام بن نوح (عليه السلام)، أما الحامية: فهي نسبة إلى حام بن نوح عليه السلام. واليافثية نسبة إلى يافث بن نوح.

(٢٨) المقريزي: (تقي الدين أحمد بن على بن عبد القادر بن محمد) (ت.٨٤٥هـ): **الخطط المقريزية المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار**(أربعة أجزاء، طبعة سلسلة الذخائر من طبعة بولاق، الأعداد٥١-٥٤ ، القاهرة ١٩٩٩م)، ج١، ص٣٢٥.

(٢٩) المقريزي: (تقي الدين أحمد بن على بن عبد القادر بن محمد)(ت.٨٤٥هـ): **ضوء الساري لمعرفة خبر تميم الداري**، (مخطوط مصور غير محقق، بالمكتبة الخاصة للمؤلف)، الورقة الثانية.

(٣٠) ابن خلدون (عبد الرحمن بن خلدون)،(ت. ٨٠٨ هـ): **تاريخ ابن خلدون**، (الجزء الثاني، سلسلة الذخائر، العدد ١٥٤، القاهرة ٢٠٠٧م)، ص٥.

(٣١) المسعودي (أبو الحسن على بن الحسين) ت. ٣٤٦هـ: **أخبار الزمان ومن إبادة الحدثان من الأمم الماضية والأجيال الخالية** (ط. الأولى، الرياض ١٤١٥هـ)، ص ٥٨.

(٣٢) البيروني (أبي الريحان محمد بن أحمد): **الآثار الباقية عن القرون الخالية** (مكتبة المثنى، بغداد، د.ت)، صـ ٢٤.

(٣٣) محمد فيض الله الحامدي: **طوفان نوح بين الحقيقة والأسطورة**، ص ٦٧؛ مجموعة من الباحثين: **طوفان نوح بين الحقيقة والأوهام**، ص٢١٧.

(٣٤) مجير الدين الحنبلي: **الأنس الجليل**، ج١، ص١١٢.

(٣٥) شعيب حليفي: **الرحلة في الأدب العربي التجنس**، آليات الكتابة، خطاب المتخيل (كتابات نقدية، العدد١٢١، القاهرة ٢٠٠٢م)، ص٤٤٨.

(٣٦) القزويني: (زكريا بن محمد بن محمود) (ت.٦٨٢هـ): **آثار البلاد وأخبار العباد** (جزآن، الطبعة الأولى، سلسلة الدراسات الشعبية، العددان ٧٧، ٧٨، القاهرة ٢٠٠٣م، ج١)، ص١٤٩.

(٣٧) ابن عساكر الإمام الحافظ أبو القاسم علي بن الحسن بن هبة الله الشافعي. **تهذيب تاريخ دمشق الكبير**. الشيخ عبد القادر رثبة بدران. (ج١. دار المسيرة ط٢ بيروت ١٩٧٩). ص٢٢.

(٣٨) أحمد سوسة، **العرب واليهود في التاريخ**، العربي لنشر والطباعة والتوزيع ط٨. دمشق بدون تاريخ، ص٧٠.

(٣٩) المسعودي: (أبو الحسن على بن الحسين)(ت٣٤٦هـ): **مروج الذهب ومعادن الجوهر** (أربعة أجزاء، تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد، الطبعة الخامسة، مكتبة الرياض الحديثة، الرياض ١٩٧٣م). ج١. ص ٣٥.

(٤٠) مصطفى مراد الدباغ، **القبائل العربية وسلالتها في بلادنا فلسطين**. (بيروت، ١٩٧٩)، ص١٧٤.

(٤١) ابن كثير: (الحافظ أبي الفداء إسماعيل ابن كثير القرشي)(ت٧٧٤هـ): **البداية والنهاية**، (الطبعة السادسة، دار المعرفة، بيروت، ٢٠٠١م) ج٢. ص ١٥٦.

(٤٢) المصدر نفسه، ج١. ص ١٩٦.

(٤٣) المسعودي. مروج الذهب. ج٢، ص ١٠٦، ١١٠، اليعقوبي. **تاريخ اليعقوبي**. ج١. مصدر سابق. ص ٢٣٤. ٢٤٠.

(٤٤) ابن الكثير. ج١. مصدر سابق. ص ٤٤. والطبري. ج١. ص ٢٠٣. ٢٠٤.

(٤٥) ابن الكثير. المصدر نفسه. ص ٤٠

(٤٦) ياقوت الحموي. **معجم البلدان**. ج١. دار صادر. بيروت. ١٩٥٥. ص ٣٧٥.

(٤٧) المصدر نفسه. ص ٣٧٥.

(٤٨) ابن الكثير. ج١. مصدر سابق. ص ٩٧.

(٤٩) المقدسي: **أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم** (طبعة بريل ،الطبعة الثانية ، ليدن ١٩٠٩م) ، ص١٥١

(٥٠) مجير الدين الحنبلي. ج١. مصدر سابق. ص ٢٢.

(٥١) ابن حوقل. أبو قاسم النصيبي: **كتاب صورة الأرض**.(منشورات مكتبة الحياة. بيروت ١٩٩٢)،ص ١٥٣.

(٥٢) شهاب الدين أبو عمرو بن تميم المقدسي. **مثير الغرام إلى زيارة القدس والشام**. (تحقيق أحمد الخطبي دار الجيل بيروت بدون تاريخ. ج١). ص ٨٥ . ٨٦.

(٥٣) ابن كثير ج٩. مصدر سابق. ص ١٥٤. وابن عساكر ج١. مصدر سابق. ص ١٩٦.

(٥٤) ابن عساكر. ج١. مصدر سابق. ص ٣٧.

(٥٥) ابن زولاق: (الحسن إبراهيم بن الحسين الليثي) (٣٠٦:٣٨٧هـ): **فضائل مصر وأخبارها وخواصها**، (تحقيق: على عمر، س. مكتبة الأسرة، القاهرة ١٩٩٩م)، ص١٢، المقريزي: **الخطط**، جـ١، ص٢٥؛ الإسحاقي: (محمد بن عبد المعطي بن أبي الفتح بن أحمد بن عبد الغني بن على المنوفي): **أخبار الأول فيمن تصرف في مصر من أرباب الدول**، (سلسلة الذخائر، العدد ٣٥، القاهرة ١٩٩٨م)، ص٨

(٥٦) أبو الفرج عبد الرحمن بن علي بن الجوزي: **المنتظم في التاريخ** (طبعة مكتبة السعادة، القاهرة ،د.ت)، ص٧.

(٥٧) ابن حوقل: مصد سابق، ص٨٨.

(٥٨) السيوطي (جلال الدين) (ت. ١٩١١م): **كوكب الروضة في تاريخ النيل وجزيرة الروضة** (تحقيق: محمد الششتاوى، الطبعة الأولي، دار الآفاق العربية، القاهرة ١٩٩٧م) ص٣٣٨.

(٥٩) ابن الجوزي: **تاريخ بيت المقدس**، ص١١. المقدسي: **أحسن التقاسيم**، ص١٨٧.

(٦٠) أبو حسن الربيعي المالكي. **فضائل الشام ودمشق**. تحقيق صلاح المنجد. المجمع العلمي العربي. دمشق. ١٩٥٠. ص ٩.

(٦١) الحنبلي، ج١. مصدر سابق. ص ٢٢٨.

(٦٢) إبراهيم زيد الكيلاني، **المراسلات النبوية مع بعض القبائل العربية في جنوب الشام**. (ندوة) المؤتمر الدولي الرابع لتاريخ بلاد الشام. عمان. ١٩٩٧. ص ٨٥.

(٦٣) أكرم زعيتر: **القضية الفلسطينية**.(القاهرة ١٩٥٥م). ص ٢٥؛ شمس الدين الكيلاني: مرجع سابق ، ص٦٩.

(٦٤) أبو الحسن علي بن محمد الربيعي المالكي. **فضائل الشام ودمشق**. (تحقيق وتقديم صلاح الدين المنجد. دمشق ١٩٥٠."مقدمة المحقق") ص ١٣ . ١٤

(٦٥) المصدر نفسه ص ٤.

(٦٦) المصدر نفسه ص ٢٦.

(٦٧) المصدر نفسه ص ٢٩.

(٦٨) المصدر نفسه. ص ٣٦ . ٣٧.

(٦٩) قاسم عبده قاسم: **تطور منهج البحث في الدراسات التاريخية**، ص١٣٩.

(٧٠) قاسم عبده قاسم: **بين التاريخ والفولكلور**، (الطبعة الثانية، دار عين للدراسات، القاهرة ١٩٩٨م)، ص٥٦.

(٧١) حاجي خليفة. **كشف الظنون**، ج٢. بيروت دون تاريخ. ص ١٢٤.

(٧٢) د. محمود إبراهيم. **فضائل بيت المقدس في مخطوطات عربية قديمة**. المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم. الكويت ١٩٨٥ . ص ٧٥.

(٧٣) شمس الدين الكيلاني: مرجع سابق، ص٦٩، ص٧١.

(٧٤) المقدسي: مصدر سابق، ص٥.

(٧٥) نفسه، ص١٧.

(٧٦) علي السيد علي: **القدس في العصر المملوكي** (الطبعة الأولى، دار الفكر للدراسات والنشر والتوزيع، القاهرة ١٩٨٦م)، ص٢٦٠، ص٢٦١.

(٧٧) سليم عرفات المبيض: **ملامح الشخصية الفلسطينية في أمثالها الشعبية** (سلسلة مكتبة الأسرة، القاهرة ٢٠٠٦م)، ص٢٢٥.

(٧٨) سليم المبيض: نفسه، ص٢٢٦.

(٧٩) للمزيد انظر/ إبراهيم شعلان: **الشعب المصري في أمثاله العامية** (سلسلة الدراسات الشعبية ، العدد ٨٨، القاهرة ٢٠٠٤م)، ص٦.

(٨٠) مجير الدين الحنبلي: مصدر سابق، ج٢، ص٥٩.

(٨١) القزويني: (زكريا بن محمد بن محمود) (ت.٦٨٢هـ): **آثار البلاد وأخبار العباد**، (ج١، الطبعة الأولى، سلسلة الدراسات الشعبية، العددان ٧٧، ٧٨، القاهرة ٢٠٠٣م)، ص١٤٩.

(٨٢) المقدسي: مصدر سابق، ص٨٧.

(٨٣) التطيلي (بنيامين بن يونة التطيلي النباري الأندلسي: **رحلة بنيامين التطيلي** (ترجمة عَزرا حداد، دراسة وتقديم: عبد الرحمن الشيخ، طبعة المجمع الثقافي، أبو ظبي٢٠٠٢م)، ص٢٥٢.

(٨٤) المدجن (عبد الله بن الصباح: **رحلة المدجن الأندلسي المعروفة بـ "أنساب الأخبار وتذكرة الأخيار"** (تحرير وتعليق محمد بنشريفة، الطبعة الأولى، دار أبي رقراق، الرباط ٢٠٠٨م)، ص١٩٠.

(٨٥) عبد الحميد يونس: **مجتمعنا** (سلسلة مكتبة الأسرة، القاهرة ١٩٩٨م)، ص١١٤.

(٨٦) للمزيد انظر/ عمرو عبد العزيز منير: **الحضارة المصرية القديمة بين المعتقدات السحرية والأساطير العربية** (مكتبة النافذة، القاهرة ٢٠٠٩م)، ص٧٨.

(٨٧) هناك العديد من الخرافات الغريبة قد نشأت حول موضوع عتبات الأبواب في كل العصور القديمة والحديثة، والتي نلمح لها أثرا في مدونات التوراة على لسان (يهوه): "وفي ذلك اليوم أعاقب كل الذين يقفزون فوق العتبة، الذين يملأون بيت سيدهم ظلمًا وغشاء "[سفر صفينا، الإصحاح الأول، آية ٩]، ويبدو من هذا التصريح، أن من يتخطى العتبة واثبًا يرتكب إثما يستحق عليه غضب الربّ، شأنه شأن إثم الخداع والغش. وتعتقد بعض الشعوب أن الأعتاب تسكنها الأرواح، وربما كان هذا الاعتقاد في حد ذاته كافيًا لتفسير الإحجام عن وطء العتبة وأن الأرواح التي تستقر عند الأعتاب هي أرواح الموتى وبناء على ذلك فإن الجو السحري الذي أحاط بالأعتاب في الخيال الشعبي جعله يخلق عادة حمل العروس فوق العتبة يوم الزفاف أو ان تخطى العروس العتبة دون أن تمسسها قدماها وهو حذر ينتشر بين كثير من الشعوب. (جيمس فريزر: **الفولكلور في العهد القديم (التوراة)**، ص٦٢٥ ومن المحتمل أن تلك المعارضة الشديدة للمس الأعتاب- فيما يبدو- أنها ترتكز على اعتقاد ديني في أن هناك خطرًا يستكن في الأعتاب، وربما كان هذا الاعتقاد في حد ذاته كافيًا لتفسير الإحجام عن وطء العتبة بالأقدام أو الجلوس فوقها وربما نلمح أثر ذلك في الأغاني الشعبية المصرية التي تؤديها الأمهات للطفل عند محاولته الأولى ممارسة الأنشطة الإنسانية الهامة لأول مرة في حياته كالمشي والكلام فتقول: "تاتا خَطِّي العتبة**تاتا حابه حابه". وتمسك الأم بيدي طفلها تحاول أن تجعله واقفًا ليخطو خطواته الأولى ممسكًا بها ومعتمدًا عليها كي يتخطى العتبة دون أن يطأ أو [يدوس] عليها. للمزيد انظر/ عمرو عبد العزيز منير: **الأساطير المتعلقة بمصر في كتابات المؤرخين المسلمين** (دار عين للدراسات والبحوث، القاهرة ٢٠٠٨)، ص١٤٥؛ الحضارة المصرية القديمة، ص٧٨.

(٨٨) علي السيد علي: **القدس في العصر المملوكي**، ص٢٦٧.

(٨٩) **الأنس الجليل**: ج٢، ص٤٠٧. ٤٠٨؛ ابن الجوزي (أبي الفرج عبد الرحمن بن على): **فضائل القدس**، ص٨٩.

(٩٠) مجير الدين، **الأنس الجليل**، ج١، ص٢٨.

(٩١) عبد الفتاح رواس قلعة جي: "**رموز وأساطير في الموروثات الشعبية**"، مجلة التراث العربي، العدد ٦٨، دمشق ١٩٩٧.

(٩٢) سراج الدين بن الوردي (ت.٨٦١هـ): **عجائب البلدان من خلال مخطوط خريدة العجائب وفريدة الغرائب** (تحقيق: أنور زناتي، القاهرة د.ت)، ص٥١.

(٩٣) مجير الدين الحنبلي: **الأنس الجليل بتاريخ القدس والخليل**، ج٢، ص٥٧.

(٩٤) القزويني: **آثار البلاد**، ج١، ص١٥٢.

(٩٥) ناصر خسرو علوي: **سفرنامة**، ص٦٨.

(٩٦) **الأنس الجليل**، ج٢، ص٢٩.

(٩٧) - راجع سفر التكوين _ الإصحاح الثاني والثالث؛ محمد خليفة حسن: **الأسطورة والتاريخ في التراث الشرقي القديم**، (عين للدراسات، القاهرة ١٩٩٩)، ص١٣٨؛ كارم محمود عزيز: **الأسطورة فجر الإبداع الإنساني**، سلسلة الدراسات الشعبية، العدد ٦٦، القاهرة ٢٠٠٢، ص٤٢١؛ عمرو عبد العزيز منير: **الحضارة المصرية القديمة**، ص٨٩.

(٩٨) سليم المبيض: **ملامح الشخصية الفلسطينية**، ص٧٢.

(٩٩) عبد الفتاح رواس قلعة جي: **رموز وأساطير في الموروثات الشعبية**، ص٤٥.

(١٠٠) **الأنس الجليل**: ج٢، ص٥٩.

(١٠١) المقدسي: **أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم**، ص٩٨.

(١٠٢) المقدسي: مصدر سابق، ص١٨٥.

(١٠٣) مجير الدين الحنبلي: مصدر سابق، ج١، ص١٢٨.

(١٠٤) على السيد على: مرجع سابق، ص٢٦٢.

(١٠٥) عبد الله بن الصباح: **الرحلة**، ص١٨٩.

(١٠٦) سليم عرفات: مرجع سابق، ص٦٧.

(١٠٧) للمزيد: راجع/ سليم عرفات المبيض: مرجع سابق، ص٧٧ – ٧٩.

(١٠٨) راجع ما ذكره: أحمد شمس الدين الحجاجي: **النبوءة أو قدر البطل في السيرة الشعبية العربية** (سلسلة الدراسات الشعبية، القاهرة ٢٠٠١م)، ص٣٣، ٣٤.

(١٠٩) أحمد رشدي صالح: **الأدب الشعبي** (سلسلة مكتبة الأسرة، القاهرة ٢٠٠٢م)، ص١٣٧-١٣٨.

(١١٠) عبد الفتاح رواس قلعة جي: مرجع سابق، ص٥٥.

(١١١) **التعميد**: هو أول الطقوس المسيحية وأهمها على الإطلاق، فبدونه لا يمكن أداء باقي الطقوس الأخرى فهو شرط أساسي للخلاص ودخول ملكوت الرب طبقًا لكلمات عيسي ابن مريم ﷺ: «ما من أحد يمكنه أن يدخل ملكوت الله إلا إذا ولد من الماء والروح» (يوحنا ٣:٥) ويجري أثناء التعميد تجديد روح المولود من خلال غمره في الماء ثلاثا باسم الأب والابن والروح القدس وبذلك يكون قد توحد مع المسيح وهيئة الكنيسة ويجب تعميد المواليد في أسرع وقت ممكن بمجرد بلوغهم ثمانين يوما للبنات وأربعين يوما للغلمان، وبعد غمر المولود في الماء ثلاثا ترسم شارة الصليب اثنين وثلاثين مرة بالزيت على بشرة المولود ذكرا كان أم أنثى. انظر/عمرو عبد العزيز منير: **الأساطير المتعلقة بمصر في كتابات المؤرخين**، ص٢١١.

(١١٢) لعلنا نلحظ أن الزيت يُعَدّ طقسًا أساسيًا ذا وظيفة تطهيرية في أحد الأعياد التي تسمى عيد الحنكة إذ يقول القلقشندي في صبح الأعشى/ ج١: "عيد الحنكة وهو ثمانية أيام يوقدون في الليلة الأولى من لياليه على كل باب من أبوابهم سراجا وفي الليلة الثانية سراجين وهكذا إلى أن يكون في الليلة الثامنة ثمانية سرج وهم يذكرون أن سبب اتخاذهم لهذا العيد أن بعض الجبابرة تغلب على بيت المقدس وفتك بالهود وافتض أبكارهم فوثب عليه أولا كهانهم وكانوا ثمانية فقتله أصغرهم وطلب الهود زيتا لوقود الهيكل فلم يجدوا إلا يسيرا وزعوه على عدد ما يوقدونه من السرج على أبوابهم في كل ليلة إلى تمام ثمان ليال فاتخذوا هذه الأيام عيدا وسموه الحنكة ومعناه التنظيف لأنهم نظفوا فيه الهيكل من أقذار شيعة الجبار وبعضهم يسميه الرباني".. انظر/ عمرو عبد العزيز منير: **الأساطير المتعلقة بمصر في كتابات المؤرخين**، ص٢١١

(١١٣) علي السيد علي: **القدس في العصر المملوكي**، ص٢٦١.

(١١٤) سليم المبيض: **ملامح الشخصية الفلسطينية في أمثالها الشعبية**، ص٢٠٨، ٢٠٩.

(١١٥) عبد الفتاح رواس قلعة جي: مرجع سابق، ص٥٦.

(١١٦) عبد الفتاح السيد الطوخي: **قدرة الخلاق في علم الأوفاق** (المكتبة الثقافية، بيروت١٩٩٢م)، ص١٤.

(١١٧) عبد الفتاح رواس قلعة جي: مرجع سبق ذكره، ص٥٦.

(١١٨) سليم المبيض: مرجع سابق، ص١٦٣.

(١١٩) على السيد على: مرجع سابق، ص٢٦٢

(١٢٠) مجير الدين الحنبلي: **الأنس الجليل**، ج١، ص١٩١.

(١٢١) عبد الفتاح رواس قلعة جي: **رموز وأساطير في الموروثات الشعبية**، ص٥٦.

(١٢٢) أحمد شمس الدين: **النبوءة** (سلسلة الدراسات الشعبية، العدد ٥٧، القاهرة ٢٠٠١)، ص٢١.

(١٢٣) روجيه جارودي، **فلسطين أرض الرسالات السماوية**، (دمشق، ١٩٨٨)، ص ١١٩.

(١٢٤) مجير الدين الحنبلي، **الأنس الجليل**، ج١، ص٢٩.

(١٢٥) ابن الجوزي: **المنتظم في التاريخ**، ج١، ص١٦.

(١٢٦) (عاش ابن سيرين في القرن الرابع الهجري ـ العاشر الميلادي ـ وهي مرحلة تاريخية مفعمة بالأحداث والتناقضات والمآسي تميزت بتسلط البويهيين وتخاذل العباسيين وبانقسام المجتمع العربي الإسلامي إلى دويلات متنافرة بحكم المتخاذلين والمغامرين، وفزع الناس إلى ابن سيرين ليفسر لهم أحلامهم حسب مستلزمات الشريعة السمحاء ولقد أعطي ابن سيرين دورا مميزا للبيئة في تفسير الأحلام، يقول ابن سيرين (وما كان له طبع في الصيف، وطبع في الشتاء، عبر عنه في كل حين يري فيه الطبع وقته وجوهره في ذلك الوقت، كالشجر والثمر والبحر والنار والملابس والمساكن والحيات والعقارب وما كان له طبع بالليل وطبع بالنهار عبرّ عنه في رؤية الليل بطبعه، وفي رؤية النهار بعادته، كالشمس والقمر من كانت له في الناس عادة لازمة من المرئيات، في سائر الأزمان، أو في وقت منها دون وقت، ترك فيها، وعادته التي عوده ربه تعالي، كالذي اعتاد إذا أكل اللحم في المنام أكله، وإذا رأي الدرهم دخلت عليه أفاد مثلها في اليقظة، وإذا رأي الأمطار رآها في اليقظة، أو يكون عادته في ذلك وفي غيره علي ضده وعلي خلاف ما في الأصول) (**تفسير الأحلام الكبير**، لابن سيرين، بيروت، لبنان، ١٩٩٤م، منشورات مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، ص:٨)

(١٢٧) محمد بن سيرين: **منتخب الكلام في تفسير الأحلام** (طبعة مكتبة دار الإسلام، القاهرة، د.ت).

(١٢٨) ضياء الدين المقدسي، **فضائل بيت المقدس**، (تحقيق مطبع الحافظ، دار الفكر، دمشق، ١٩٨٥، ص ٧، وانظر: محمد حسن شراب، **بيت المقدس والمسجد الأقصى**، دمشق ١٩٩٤)، ص٨٣.

(١٢٩) عارف باشا العارف، **القدس**، (دار المعارف بمصر، دون تاريخ)، ص ٤٤، ٤٥. شمس الدين الكيلاني: مرجع سابق، ص٥٦ وما بعدها.

(١٣٠) الواقدي، **فتوح الشام**، الجزء الأول، بيروت دار الجيل، دون تاريخ، ص٢٢٩.

(١٣١) القاضي مجير الدين الحنبلي، **الأنس الجليل بتاريخ القدس والخليل**، قسم أول (نسخة في المكتبة الوطنية بحلب)، قسم أول، ص ٢٣٧.

(١٣٢) ارمسترونغ، **القدس**، ترجمة نصر/فاطمة، وعناني/ محمد، مصر، سطور، ص ٣٨٩.

(١٣٣) د. إسحاق موسى الحسيني: **عروبة بيت المقدس**، مركز أبحاث منظمة التحرير، بيروت ١٩٦٩، ص ٥٠.

(١٣٤) عبد العزيز الدوري، "**فكرة القدس في الإسلام**"، مجلة شؤون عربية، بيروت، عدد ٢٤، ١٩٨٣، ص ١٤١؛ شمس الدين الكيلاني: مرجع سابق، ص٧٥.

(١٣٥) الإمام المنذري، **الترغيب والترهيب**، ج٤، حققه مصطفى محمد عمارة، مطبعة مصطفى البابي الحلبي، مصر ١٩٦٩، ص٥٩ .٦٣ حيث يجمع ثمانية عشر حديثًا من فضائل الشام.

(١٣٦) الدوري، مصدر سابق، ص ١٤٨.٤٧.

(١٣٧) الحنبلي، مصدر سابق، ص ١٤٨.٤٧.

(١٣٨) شهاب الدين أبو محمد بن تميم المقدسي: مصدر سابق، ص ٢٤١.

(١٣٩) الدوري، مصدر سابق، ص ١٤٤.١٤٣.

(١٤٠) نبيه العاقل، **الموسوعة الفلسطينية**، الجزء الثاني، المجلد ثاني، مؤسسة الدراسات الفلسطينية، بيروت ١٩٩٠، ص٣٢٥/٣٢٦.

(١٤١) مارغريت فان برشيم وسلاوغ أوري، **القدس الإسلامية** (تعريب د. عطا الله وهبه والدكتور سامي حسن والدكتور شوقي شعث، دار الشام، دمشق ١٩٩٤)، ص ٥٣.

(١٤٢) أرمسترونغ، مصدر سابق، ص ٤٠٣.

(١٤٣) مارغريت فان برشيم، ص ٨٣.

(١٤٤) جورج مارسيه، **الفن الإسلامي**، (ترجمة عفيف بهنسي، وزارة الثقافة، دمشق، ١٩٦٨)، ص ٣٦.٣٥؛ شمس الدين الكيلاني مرجع سبق ذكره، ص١٩٧.

(١٤٥) فان برشيم وأروبي، مصدر سابق، ص ٨٣.

(١٤٦) المصدر نفسه، ص ٣٧.

(١٤٧) شراب، مرجع سابق، ص ٣٥١.

(١٤٨) الحنبلي، ج١، ص ٢٤٩، وشهاب الدين المقدسي، ص ٣٤٥/ ٣٤٦.

(١٤٩) شهاب الدين المقدسي، مصدر سابق، ص ٣٤٠، ص١٨١.

(١٥٠) الدوري، مصدر سابق، ص ١٤٨.

(١٥١) العاقل، مرجع سابق، ص ٣٠٥.

(١٥٢) شراب، مرجع سابق، ص ٢٨٦. شمس الدين الكيلاني: مرجع سابق، ص٧٨.

(١٥٣) شمس الدين السيوطي، **اتحاف الأخصى بفضائل المسجد الأقصى**، القسم الثاني ص ١٨٢.

(١٥٤) الطبري ج ٨/ص ٦٥٧.

(١٥٥) الدوري. مرجع سابق، ص ١٤٩، وشراب: مرجع سبق ذكره، ص ٣٨٧.

(١٥٦) أرمسترونغ: مرجع سابق ص ٤١٦.٤١٧.

(١٥٧) كانت الرحلة الخياليّة الشعبية في الملاحم وسيلة للإنسان القديم للوصول إلى عالم الموتى المجهول تارة، ويستشرف من خلالها الرحّالة آفاق المستقبل وغامض الغيب تارة أخرى، كما تبدو الرحلة الخياليّة صورة معكوسة للحياة الاجتماعية في عصر صاحب الملحمة. ثمّ جاء الإسلام فأعطى المسلمين تصوّرًا غنيًا وعميقًا عن اليوم الآخر، وهو حقّ وصدق، كما أغنى خيالهم، وأشبع نفوسهم، وأراح أرواحهم بحديث الإسراء والمعراج، وكان الاعتقاد به ركنًا من أركان الإيمان لديهم، ولذلك استقر في نفوسهم وأشبع لديهم الرغبة في معرفة العالم الآخر. ولهذا كلّه لم يظهر نصّ أدبي يتصوّر الرحلة إلى العالم الآخر إلاّ في عصور متأخرة، ولعلّ أول ما ظهر في هذا المجال هو قصة الإسراء والمعراج التي توسّعت في حديث الرسول عن الإسراء والمعراج، وهي نصّ شعبيّ نسب إلى ابن عباس رضي الله عنهما. انظر/ محمد الصالح سليمان: **الرحلات الخيالية** (منشورات اتحاد الكتاب العرب، دمشق ٢٠٠٠م)، ص١٣.

(١٥٨) كارين أرمسترونغ: **القدس**، ص ٣٨٠.

(١٥٩) الإمام الغزالي، أبو حامد (٥٠٥ هـ): **إحياء علوم الدين**، المجلد الخامس، بيروت، دمشق دار الفكر، ١٩٩٤، ص ٦٤.

(١٦٠) الأنس الجليل: مصدر سابق ج١، ص١٢٢_١٢٥؛ القزويني: **آثار البلاد**، ج١، ص٢٢٠؛ شهاب الدين المقدسي: مصدر سابق، ص١٧٩؛ الأبشيهي: (شهاب الدين محمد بن أحمد أبي الفتح الأبشيهي المحلي) (٧٩٠-٨٥٠هـ): **المستطرف في كل فن مستظرف**، جزآن، الطبعة لأخيرة، مكتبة مصطفى البابي الحلبي، القاهرة ١٩٥٢م، ج٢، ص١٩٩.

(١٦١) ناصر خسرو علوي: **سفرنامة**، ص٨٠.

(١٦٢) الأنس الجليل: مصدر سابق، ج١، ص١٢٢_١٢٥.

(١٦٣) سعد الخادم: **الفن الشعبي والمعتقدات السحرية** (سلسلة الألف كتاب، العدد ٤٨٨، القاهرة ١٩٦٤م)، ص٧٢.

(١٦٤) البوني (أحمد بن علي بن يوسف البوني) (ت٦٢٢هـ): **شمس المعارف الكبرى المسمى شمس المعارف ولطائف العوارف**، (أربعة أجزاء، مكتبة جمهورية مصر العربية، القاهرة بدون تاريخ)، ص٢٥٦.

(١٦٥) عبد الله بن الصباح: مصدر سابق، ص١٩٠.

(١٦٦) من الطريف أن الخليفة العباسي العاشر المتوكل على الله، أعطى لكل ملة دينية لونًا خاصًا بها؛ فالمسلمون لهم اللون الأبيض دلالة على الفطرة، والنصارى لهم اللون الأزرق دلالة على السماء حيث رفع النبي عيسى عليه السلام، والمجوس لهم اللون الأحمر دلالة النار، أما اليهود فقد خصص لهم اللون الأصفر دلالة الذهب من شدة حبهم له وتعلقهم به وفي الموروث الشعبي اليهودي أن البقرة الصفراء ستكون مقدمة لمجيء العصر المشيحاني. راجع/ جمال البدري: **اليهود وألف ليلة وليلة** (الدار الدولية للاستثمارات الثقافية، القاهرة ٢٠٠٠)، ص٩٤.

(١٦٧) جمال البدري: مرجع سابق، ص٩١ - ٩٥.

(١٦٨) شهاب الدين أبي محمود المقدسي: مصدر سابق، ص٢٢٩، ٢٣٠.

(١٦٩) عبد الله بن الصباح: مصدر سابق، ص١٨٩.

(١٧٠) أبو حنيفة الدينوري: **"الأخبار الطوال"** (طبعة مكتبة زاد المسلم، القاهرة دون تاريخ)، ص٨.

(١٧١) **الأنس الجليل**، ج١، ص١٢٧؛ شهاب الدين المقدسي: **مثير الغرام**، ص١٨٣.

(١٧٢) **الأنس الجليل**، ج٢، ص١٢٥؛ شهاب الدين المقدسي: مصدر سابق، ص١٧٩.

(١٧٣) **قصة فيروز شاه**: المجلد الأول، مطبعة عبد الحميد حنفي سنة ١٣٦٦هـ.

(١٧٤) سليمان حسن: **الرموز التشكيلية**، ص٣٣.

(١٧٥) أحمد النعيمي: **الأسطورة في الشعر العربي قبل الإسلام**، ص١٨٠.

(١٧٦) سليم عرفات المبيض: مرجع سابق، ص٥٨، ٥٩.

(١٧٧) نفسه، ص٦٠.

(١٧٨) مجير الدين الحنبلي: **الأنس الجليل**، ج٢، ص١٥.

(١٧٩) القزويني: **آثار البلاد**، ج١، ص١٤٩.

(١٨٠) شهاب الدين المقدسي: مصدر سابق. وأيضًا ضياء الدين المقدسي. مصدر سابق. ص ٤٤، ٤٥.

(١٨١) شهاب الدين المقدسي: مصدر سابق. ص ٧٤.

(١٨٢) **الأنس الجليل**، ج١، ص١٦٧؛ النابلسي: **الحضرة الأنسية في الرحلة القدسية**، ص٤٤.

(١٨٣) عارف العارف: **المفصل في تاريخ القدس** (الجزء الأول، الطبعة الخامسة، مكتبة المعارف، القدس، ١٩٩٩م)، ص٤٤٠.

(١٨٤) شهاب الدين المقدسي: مصدر سابق، ص٢٦٢.

(١٨٥) أحمد النعيمي: **الأسطورة في الشعر العربي**، ص١٦٥؛ لطفي حسين سليم: **الأسطورة والإسرائيليات** (سلسلة الدراسات الشعبية، العدد ٥٢، القاهرة ٢٠٠٠م)، ص ١٣٤.

(١٨٦) وتتضمن هذه الملحمة رحلتين، الأولى رحلة جلجامش مع أنكيدو إلى جبال الأرز وقتلهما إله الشرّ، ثمّ رحلة جلجامش وحده بعد موت صديقه أنكيدو إلى عالم الموتى وركوبه البحار والمحيطات وعودته بزهرة الخلود ثمّ نزوله إلى البئر والتهام الأفعى تلك الزهرة. وتمثّل الرحلة الأولى صراع الإنسان مع قوى الشرّ كما تمثّل الرحلة الثانية بحث الإنسان عن سرّ الحياة وصراعه مع

الموت ذلك المجهول. لقد كانت رحلة جلجامش تعبيرًا عن توق الإنسان إلى المعرفة وكشف المجهول ومحاولته معرفة سرّ الحياة والخلود. والقضاء على قوة الموت والفناء

(١٨٧) محمد خليفة حسن: **الأسطورة والتاريخ في التراث الشرقي القديم**، ص ٩٠، ص ٩١.

(١٨٨) رحلة بنيامين، مصدر سابق، ص٢٥٤.

(١٨٩) للمزيد عن أبعاد علاقة السير الشعبية بالحوادث التاريخية راجع ما كتبته الدكتورة نبيلة إبراهيم: **من نماذج البطولة الشعبية في الوعي العربي** (طبعة ندوة الثقافة والعلوم، دبي ١٩٩٣م)، ص١٤٤.

(١٩٠) اعتمدنا هنا على الملخص الرائع الذي قدمته الدكتورة نبيلة إبراهيم لسيرة سيف بن ذي يزن في كتابها، **من نماذج البطولة الشعبية**، ص١١٨، وما بعدها؛ كذلك تصفحنا للسيرة الشعبية سيف بن ذي يزن، طبعة مكتبة الدراسات الشعبية، القاهرة ١٩٩٩.

(١٩١) شهاب الدين المقدسي: **مثير الغرام**، ص٢٢٨.

(١٩٢) الطبري: **تاريخ الطبري**، ج١، ٣٥٦.

(١٩٣) **الأنس الجليل**، ج٢، ص٦١.** الرواية قد تعكس بعض ملامح تضمنتها أفكار أقدم ترتبط بالعبادات الطوطمية والطقوس الخاصة بها، فلم يكن تقديس الأشجار بين العرب . قبل الإسلام . بأقل من تقديس الأصنام والجبال والآبار، ذلك لاعتقادهم أن هذه الأشجار فيها أيضا "قوى روحية" كامنة فيها وأن لهذه القوى أثرًا خطيرًا في حياتهم، ويبدو أن الاعتقاد بوجود الأرواح أو الحياة في الأشجار كان مقصورًا على أنواع بعينها مردها إلى ضخامة هذه الأشجار وقوتها وثمرها الكثير أو نفعها. نوري حمودي القيسي: **الطبيعة في الشعر الجاهلي**. (الطبعة الأولى، دار الإرشاد، بيروت ١٩٧٠م)، ص٦٩.

(١٩٤) شهاب الدين المقدسي: مصدر سابق، ص١٤٧؛ مجير الدين الحنبلي: مصدر سابق، ج١، ص١١٩.

(١٩٥) شهاب الدين المقدسي: مصدر سابق، ص١٨٤؛ مجير الدين الحنبلي: مصدر سابق، ج١، ص٢٥٦.

(١٩٦) عبد الغني النابلسي (ت. ١١٤٣هـ): **الحضرة الأنسية في الرحلة القدسية** (طبعة جريدة مطبعة الإخلاص، القاهرة ١٩٠٢م)، ص٤٧، ٤٧.

(١٩٧) **الحضرة الأنسية**، ص٢٠.

(١٩٨) ناصر خسرو علوي: **سفرنامة**، ص٦٨.

(١٩٩) الحنبلي: **الأنس الجليل**، ج٢، ص٦٢.

(٢٠٠) المقدسي: **أحسن التقاسيم**، ص٨٩.

(٢٠١) المقدسي: **أحسن التقاسيم**، ص٤٣.

(٢٠٢) **سفر نامة**، ص٦٧.

(٢٠٣) شهاب الدين المقدسي: مصدر سابق، ص١٨٤؛ مجير الدين الحنبلي: مصدر سابق، ج١، ص١٤.

(٢٠٤) للمزيد عن عناصر الاختفاء في النصوص العربية راجع، شعيب حليفي: **الرحلة في الأدب العربي**، ص٤٥٤ وما بعدها.

(٢٠٥) شهاب الدين المقدسي: **مثير الغرام**، ص٢٤٢.

(٢٠٦) **الأنس الجليل**، ج٢، ص١٩.

(٢٠٧) شهاب الدين المقدسي: مصدر سابق، ص٢٥٥.

(٢٠٨) **الأنس الجليل**، ج٢، ص٢٣٦؛ شهاب الدين المقدسي: **مثير الغرام**، ص٢٥٦.

(٢٠٩) **مثير الغرام**، ص٢٥٩.

(٢١٠) نفسه، ص٢٤٧.

(٢١١) **الأنس الجليل**، ج١، ص٢٣٨.

(٢١٢) نفسه، ج١، ص٢٣٩.

(٢١٣) نفسه، ج١، ص٢٤٠.

(٢١٤) الإبشيهي: **المستطرف**، ج٢، ص٢٥٧.

(٢١٥) المقدسي: **أحسن التقاسيم**، ص٩٨.

(٢١٦) مجير الدين الحنبلي: **الأنس الجليل**، ج١، ص١١٩؛ ابن الجوزي (أبي الفرج عبد الرحمن بن على): **فضائل القدس** (تحقيق جبرائيل سليمان جبور، دار الآفاق الجديدة، بيروت، ١٩٨٠م)، ص٧٩.

(٢١٧) للمزيد حول أثر النبي سليمان في الأساطير العربية. انظر فاضل الربيعي: **الشيطان والعرش رحلة النبي سليمان إلى اليمن** (دار رياض الريس، بيروت ١٩٩٦م).

(٢١٨) سعد الخادم: مرجع سابق، ص٧٧.

(٢١٩) **تفسير الأحلام وتعطيره وتعبيره**، مصدر سابق، ص٦١٣.

(٢٢٠) سعد الخادم: مرجع سابق، ص ٨٠ - ٨١.

(٢٢١) نفسه، ص٨٢.

(٢٢٢) عبد الفتاح الطوخي: **سحر الكهان في حضور الجان** (مكتبة الجمهورية، القاهرة د.ت)، ص١٣٠.

(٢٢٣) نفسه، ص١٣١.

(٢٢٤) المسعودي: **مروج الذهب**، ج٤، ص ٩٥.

(٢٢٥) انظر: سهير القلماوي، **ألف ليلة وليلة**، (تقديم: جابر عصفور، مكتبة الأسرة، القاهرة ١٩٩٧م)، ص١٦٠.

(٢٢٦) ابن سيرين: مصدر سابق، ص٥٨٩.

(٢٢٧) سليمان محمود حسن: **الرموز التشكيلية في السحر الشعبي** (سلسلة آفاق الفن التشكيلي، هيئة قصور الثقافة، القاهرة ١٩٩٩م، ص١٧١.

(٢٢٨) **الأنس الجليل**: مصدر سابق، ج١، ص١١٩.

(٢٢٩) سليمان حسن: **الرموز التشكيلية في السحر الشعبي**، ص١٦٠.

(٢٣٠) قاسم عبده قاسم: **بين التاريخ والفولكلور**، ص ٧٢.

(٢٣١) للمزيد حول فكرة كون الأسطورة مصدرًا معتمدًا من مصادر التاريخ راجع الدراسة التأسيسية لمجموعة من الباحثين تحت عنوان "**الأسطورة توثيق حضاري**" (مطبوعات جمعية التجديد الثقافية، البحرين ٢٠٠٥م)

(٢٣٢) راجع ما كتبه طارق البشري: **عن القدس وفلسطين** (حولية أمتي في العالم، مركز الحضارة للدراسات السياسية، القاهرة ١٩٩٩م)، ص٤١.

(٢٣٣) ابن الجوزي: **المنتظم في التاريخ**، ج١، ص٢١.

(٢٣٤) **رحلة المدجن**، مصدر سابق، ص١٩٤.